

الكتاب الأول

الأستوك

قصص



أسامة ريان

الأساتوك

أسامة ريان

مقرر لجنة الكتاب الأول :

حسين حمودة

مدير التحرير :

منتصر القفاش

المشرف الفنى :

هشام نوار

الكتاب الأول

- ١٢٢ -

الأساتوك

قصص

أسامة ريان



٢٠١١

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ريان، أسامة.

الأساتوك : قصص / أسامة ريان

ط١ - القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠١١

١٤٨ ص، ٢٠ سم

١ - القصص العربية القصيرة

(أ) العنوان ٨١٣,٠١

رقم الإيداع ٢٠١٠/٢٤٤٥٦
الترقيم الدولى I.S.B.N.978- 977-704-413-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel. : 27352396 Fax : 27358084
www.scc.gov.eg

الأساتوك

إهداء

إلى روح زوجتي .. تبثني أنوارًا تشعُ في عقلي وفؤادي..

وإلى أسرتيّ .. الكبيرة والصغيرة .. وأساتذتي، فهُمُ كُثُرُ ..

هذا العمل نتاج رعايتهم ..

أسامة ريان

من جديد

أذهب للجريْ حول تلك الحديقة .. أدور بين الدائرين .. الحديقة مربعة تمامًا .. قِستها بالخطى يومًا .. سورها حديدي غير مرتفع .. تطل أعلاه، ومن خلاله أفرع الأشجار .. ندور حول مُربع .. ترى هل كان يمزح الجاحِظ .. عندما اختار التربيع والتدوير عنوانًا .. أظل أعدو، وأعدو .. يبلغ بى الإرهاق مبلغه .. فأحسُها وأستشف وجودها حولي .. تحاورني .. لا أنس تلك الليلة، قارسة البرودة .. حديث عهدٍ بفراقِها .. إيماني عميق، لن تتركني .. تعاهدنا مِرارًا .. آخِر نظراتِها لي، قبل أن أغمِض عينيها .. تتملكني حيرة فقدانها .. أحادِثها بينما أدور..

الحافة المدببة للمربع تفزعني .. تفصل بين عالمين، اتجاهين .. يزول وقعها وأنا أدور .. تذوب الحافة في الدائرة، لعله - الجاحِظ - كان يقصد بمزاحه .. أن الدائرة تُفيد الديمومة، بحركة ناعمة لا بداية لها ولا نهاية .. بينما يتصف المربع بالقسوة، في الانتقال من حال إلى حال .. وبالتساوي .. عبر الحافة المدببة - الصيرورة - مرورًا ببرزخ .. يستمر في مزاحِه .. فأحوالنا هى .. دوران ، لُهاث أبديّ .. حول جامِد .. قاسٍ .. يوحِي .. يوحي بالسكون والخمود .. الأبديّ ..

ارتميت على حشائش الحديقة .. في هذا الركن، وحدي .. أسترد أنفاسي اللاهثة .. يتصاعد حوارها معي، يملأ صوتها أذنيّ .. استلقيت على ظهري.. الحوار مستمر .. النجوم أقرب وأكثر سطوعًا في القبة السوداء .. أسمعني أرجوها .. كعادتي:

- يعني لازم آخر الليل .. ويكون نَفَسي مقطوع .. في الخلاء .. تضحك .. تعلم أني أحب هذه الضحكة .. عيناها في عينيّ :

- ده وقتي .. وأنت تحبه .. وفّيتُ بالعهد .. يمكن أحاول بالنهار.. لكن حاول تعرفني .. أو تلاقيني .. ها تحس بي ..

تتباعد ضحكتها عندما تميل برأسها للجهة الأخرى .. أحس يدها تتلمسني .. تتسلل من على رأسي .. كتفي .. مارة بذراعي .. لتتعانق أصابعنا، كما اعتدنا .. هببت جالسًا .. لهثتُ مرة أخرى .. يرتعد جسدي.. يبللني العرق .. جفتْ حلقي .. نظرت حولي .. ظلام.. أضواء بعيدة خافتة .. هدأتُ، تدثرتُ برداء ثقيل .. قمت مترنحًا، أحمل حقيبتي .. أسير متهالكًا إلى منزلنا .. يتردد صدى حوارها في أذنيّ .. أبتسم .. مشتاق إليها .. هل أصدّقها .. وأترقّبها من جديد..

صَدَى المكان

نطق المكان .. سافَرتُ .. فنطقَ المكان ..

يؤنسني .. يشعر بوحدتي.. حتى وأنا أجادلها في خيالي .. يخاطبني كلما مررت به، يسمعنى ماراً به، وحدي .. أمام البناية العتيقة .. تحمل اسم الشركة العالمية العريقة .. الشارع مزدحم.. تكاد لا تتحرك السيارة .. يبدو مدخل البناية كفم لعملاق بلا أسنان.. مدفون جسمه ..

انتظرتها هنا .. صباح ذلك الشتاء البارد .. أناجيها:

– إنتظرتك هنا .. أمام هذا الفم .. عندما ظهرتِ عبر الشارع الهادئ.. لم أكن أصَدِّق أنها أنتِ .. تعبُرينَه إليّ .. يضج قلبي، تضطرب دقاته، تَصُمّنى خفقاته.. أتصبب عرقًا ، دافئ..

يَرُدُّ عليّ .. صوته غريب، ينبعث من الفم الكهفى.. يملأ صداه فضاء الشارع:

- كنت أرقُبكِ يومها، تنتظرها.. كثيرون انتظروا، وينتظرون.. أمامي.. أتأملهم، شاهدٌ عليهم.. ما يزيد عن المائتى عام مَضَت.. أقف هنا.. أنا ومباني أخرى، تُجسِّد أحلام رومانسية الخديوي.. صديق البحار المُغامر.. أطلق اسمه الأجنبي عليّ، وكذلك على شركة السياحة العالمية التي أحمل شعارها .. تفنن في بنائي وزخرفتي.. إمتداد غربي بلمسة شرقية.. أراد الخديوي إضفاء رومانسيته على حياتنا.. تنظِّم الشركة رحلات - كانت بالسفن البخارية - تأتينا من كل أنحاء العالم .. كُنت معكما تتجولان بين صورها فى الفاترينات والقاعات.. مليئة بالسفن والعربات الوثيرة تجرها الخيول الرشيقة .. السيدات والرجال في ملابس السهرة، الشوارع نظيفة تحوطها الأشجار.. في طريقهم إلى الأوبرا أو المتحف أو الأهرامات .. كان زمن جميل .. أراكما بينهم .. مُتألقيّن..

أرتاع من النظر جهتِه .. إلى فمِه، حيث انتظرتها .. أتَلفتُ حولي في زحام السيارات .. انساب الشارع فجأة .. أفرّ من أمامه .. دون أن أنتبه، انزلقت السيارة إلى النفق .. يؤدي إلى المكتبة، في الشارع الجانبي بعد النفق.. تنتظرني في المساء، بعد يوم عمل خانِق.. ولأن بناء المكتبة بيزنطي النقوش والبوابات والقبوات، لكن يميل إلى الأرابيسك.. أراها تقف في الشرفة ذات النقوش، كأميرة من البيت الأموي.. في

ضـوء المصبـاح الذي يضئ المبنى.. قـدّها المـشـوق.. ينسـدل شـعـرها الأشقر .. متأبطة كتاب ..

أجتاز البوابة، لا ألحظ أحداً.. أصعد السلم جرياً.. جالسة.. تحمرّ وجنتاها، تضع كتـابها جـانبًا.. تسـحب يدها من كـفي بلطف، بعد أن قبلتـهـا.. تبـتسم عيناها النفـاذتان بلونـهـمـا المُحـيّـر.. خليط نادرٍ من الأطياف.. كل لفتة لها لون .. تحب أن ترى جمـالها وأناقتها فـي عينيّ.. بينما أتلمس عطرها.. فأنسى ما ألمّ بيّ..

– أعلم أنكِ لستِ هناك.. وطريقى إلى المنزل لا يمر بالنفق.. لكن .. ينبـعث صـوته.. غليظ، يتـردد صـداه في جـدرانه تحت الأرض.. تزداد عمـقًا نزولاً، وتقلِ خـروجًا.. أتبيَّنه بصعـوبة.. يزأر مع هواء السيـارات المسرعة تمر بي:

– كَم تحمّلت رعونتك وأنت في الطريق إليـها.. تخترقني مسرعًا.. لماذا الرعـونة الآن وقـد رَحلَت.. ألا تذهب إلى منزلك.. تسـتـريح .. وتريحني.. لا أعيره اهتمامًا.. أواصِل المناجاة:

– سأجلس في المكتبة في نفس المكان .. أراني هناك معكِ.. رفوفها التي طُفنا بها معًا.. ومعي كتابك..

زأر هواؤه بعنف..

أسير من السيارة إلى مدخل المكتبة.. أتأمل الشُرفة والنوافذ.. الأرابيسك المُزخرف .. نقوش وكتابات بارزة، تلقي بظلالها على الجدار في ضوء المصباح القوي.. أصعد الدرج.. تردد الجدران صدى أحاديثنا، بينما يُطل علينا نيتشة وهيجل وشارلي شابلن ونجيب محفوظ في أطرهِم المُذهّبة..

جلستُ أتصفح الكتاب .. قالت يومها (وكنا نعلق على الأحداث):

– ماذا يتصورَ هؤلاء الناس، شعوب تسود العالم .. تظن أن الأخرين عبيداً لهم . أبحث في الكتاب عن تصور هيجل للسيد والعبد .. صفحات قرأناها معًا، قالت يومها:

– يقصد أن العبد يُبدع تحت وطأة السخرة.. يبدع في الصناعات والفنون.. يحقق مكاسب .. يثير غيرة السيد، يشعره بفشله.. تشتعل الثورات والأفكار الحرة..

تلك الليلة .. انتزعت لها زهرة بنفسجية من الشجرة في مدخل المكتبة :

– ربما عبد.. مستمتع.. لا طموح لديه ..

لم تعلّق .. اكتفت بنظرة خاطفِة .. أذكرها..

إنتـهيت من القـهوة – مضـبوطة على طريقتـها – أتلفتُ حـولي .. الكتب في أرففها .. تصفحنا منها الكثير .. لعلها تذكرنا كما نذكرها ..

قمت قبل أن تغلِق المكتبة أبوابها .. أتكئ على السلم نازلاً .. أحسّ ذراعها تتكئ على ذراعى الأخرى .. لم ألتفت ..

مُتمـهلاً .. بخطواتها .. أحمل كتابها، أخطو خارجًا من البوابة .. يحركها الهواء .. ينبعث صريرها عاليًا .. يصيح :

– ستعوووووود ..

مُســافرون

أسرع بما تبقى فيّ من جَهد.. بعد انتهاء طابور تدريب العصر، لألحق بالحمّام.. قبل زحام الزملاء.. العرق وحبيبات الرمل ملتصقة بي .. لا أطيقها.. ملح العرق في لعابي.. يحرق عينيّ .. هذه الوحدة بالذات - الأقرب للخزان - مغلقة الباب .. أنتظر .. توافد الباقون..

صوت فتح المزلاج.. خرج مسرعًا.. يحمل منشفته وملابسه .. انسللت بعده .. أخلع ملابسى المبتلة عرقًا بينما أقفل المزلاج.. أفتح صنبور الماء.. لا أنسَ إحساسي اللذيذ برشاش الماء حينها.. هو نهر الجنة.. الصابون في عينيّ.. تلمست مقبض الصنبور.. ما هذا .. سلسلة معلقة.. لم أنتبه إليها أولاً .. فضية، معلق بها حرف أجنبي .. انتهيت.. أسقطتها في جيبي.. سأبحث عنه بعد أن أخرج.. له شارب مميز.. أتفحص الوجوه في الطريق إلى خيمتنا، وقد ساد المرح بعد مشقة النهار بطوله.. لا أعرف اسمه .. أتلمسه على موائد العشاء، في ضوء المصابيح الخافتة، وقد ساد الظلام خارج القاعة.. هل اختفى..

لمحته في زحام الاستعداد لطابور الصباح.. لم أتمكن من اللحاق به إلا عند الظهيرة.. ربت على كتفه.. استدار إليّ.. أخرجتُ السلسلة من جيب سترتي العلوي.. معلقة في إصبعي أمام عينيه.. تأملها .. برقت عيناه.. يتفحصني:

– أشكرك .. افتقدتها.. (غمغم بصوت مسموع: كما فقدت صاحبتها).. لازم نشرب شاي معًا..

أصرّ.. اتجهنا إلى المقصف.. كوبان من الشاي، على أطراف المعسكر.. تحت النخلة القصيرة.. قرب السلك الشائك.. ينظر إليّ .. عيناه محملتان بالشكوى.. أرى الكلام .. ساد الصمت.. انفجر فجأة:

– أنت تبحث عني منذ الأمس..

– فعلاً .. لم أجدك .. ولم أكن أعرف اسمك..

– ليتك لم تجدني.. أو تجدها.. ليتها ضاعت.. راحت معها..

أمسك رأسه بين كفيه.. مُطرقًا في الأرض.. يريد أن يبوح.. يبحث عن كلمات.. أمسك بكوب الشاي.. أصابتني الحيرة.. أخشى زيادة متاعبه.. همست له:

– إهدأ .. إن شاء الله خير..

أشعر بالحرج.. أحاول التنصل بالاستئذان.. رفع رأسه، يصر على إكمال الحديث .. حانقًا:

- يعني كل واحد يسافر .. يرجع معاه فلوس.. يدمر، يخرب.. تضغط عليها أمها، وسلبية أبوها.. أخافوها.. أغروها .. المصيبة أن العريس جارهم.. يعرفها.. ويعرف ارتباطها بي من زمان.. رآنا معًا كثيراً .. وأهدتني السلسلة (يقبض عليها في كفه) منذ شهر، وهي تودعني.. (ساخرًا) لأذكرها، حتى نلتقي..

لا حديث له معي إلا عنها.. طوال الشهور الست.. كلما التقينا.. داخل أو خارج المعسكر.. حتى أنه كان يبحث عني، وأحيانًا لا يتركني للنوم حتى ساعات متأخرة.. في ظلام أمام الخيمة.. لكأنني أصبحت أعرفها.. أكاد أميزها إذا رأيتها..

تلك الليلة ومعي السلسلة.. أبحث عنه قبل أن أعرفه.. كان قد استأذن .. سافر .. قابلها، لتبلغه بالنهاية..

يستعد ولدي الأكبر لاجتياز امتحان المرحلة الابتدائية.. في سفارتنا في تلك البلاد .. صباح اليوم الأول.. أوجه له النصائح الأخيرة..

ترى من ذا الذي يربت على كتفي هنا.. التفتُّ.. احتضنني .. اللقاء حار.. لم يكن لنا سوى حديث واحد.. ضحكنا .. قلنا معًا:

- ألا نلتقي إلا هنا..

قدَّم لنا ولده.. جاء أيضًا للامتحان.. سألته:

– هل لازال كما هو رأيك في الفلوس. إذًا .. لماذا جئنا..

التقينا بعد امتحان الأولاد.. على أمل لقاء حافل بعد معاناة الامتحانات..

صباح اليوم التالى.. تأخرت وولدي.. الطريق مزدحم.. نٍهرول إلي القاعة خلف المتأخرين.. تبقت عدة دقائق .. أراه يقف بالقرب من الباب، يجذبه ابنه من يده.. أمامه سيدة بالعباءة السوداء، بجوارها فتاة في عمر ولدينا.. لا يتحدثان.. ليس لديه بنات.. مررت به.. اصطحب ولدي ابنه للدخول .. تقف الفتاة حائرة إلى جوار السيدة.. أشارت لها لتدخل إلى قاعة الامتحان، انطلقت الفتاة.. يتبادلا النظرات .. ممتقع وجهه.. ترتجف شفتيه.. لا يرد عليّ .. أنظر إليه، ثم إليها.. بصوت مبحوح، انتزعه من غصة حلقه.. هز لي رأسه:

– هي ..

ملسيم

كانت من العنيفات اللاتى عَصَفن بمراهقتي.. أقف أمامها مشدوهًا.. تنظر إليّ أحيانًا.. فأرتبك.. تتجاهلني كثيراً.. فأجدها فرصة لتفحصها.. تداعب خيالى.. تلك التفاصيل.. أفكر فيها سراً.. أحلم بها.. لا تبارحني.. فستانها فى تلك الليلة.. قصير ..بلون ورقة البصل الجافة.. لمعتُه تَشى بالنعومة .. الانحناءات تراوغ الضوء.. محاولة التّخفى.. ذراعاها بَضّتان.. مسحوبتان.. طلاء أظافرها بنفس اللون.. ماكياج لونها الخمري.. يحملني إلى كليوباترا.. كما صوَّرها كتاب التاريخ، قليلة الكلام.. فكل الحضور رجال.. عدا أمي.. توزع ابتساماتها عليهم بالتساوى.

حاز أبى جائزة الدولة .. كنا نشاهد الحفل فى التليفزيون، تجمعت الشلة للاحتفال بانتصار أحدهم .. بعد طول إجحاف.. اندهش أبي عندما خاطبه الزعيم باسمِه المنزلي .. سأله عن أحوال الأولاد.. أعدّت أمي هذا العشاء الاحتفالى.. تحبها أمي وتألفها:

– عايدة دى غلبانة .. حظها شوية .. رغم جمالها، وخفة دمها..

يزداد فضولى:

– هى معاهم فى الشُغل يا ماما..؟

– هى تعرف كل الفنانين .. هى عين رئيس الهيئة عليهم.. تعرف أحوالهم .. وتستلم أعمالهم..

يزداد تألقها عندما تضحك.. يتولى ذلك ببراعة الرسام المشهور.. عائدًا من أمريكا .. يتندَّر بمغامراته الفاشلة مع حريم الفرنجة.. فبدلاً من إتمام علاجه من مرضه العضال خلال فترة معرضه – حوالى الستة أشهر – انفلت من عقاله.. لا يأنف من ذِكر التفاصيل .. فتضِج عايدة، والجميع بالضحك .. توليه اهتمامها.. فالكل يعلم أنه في طريقه للنهاية.. يلتصق بها على الأريكة المنخفضة .. ساقاه الطويلتان النحيفتان.. تبدوان كما لو كانتا تلتفان حولها.. حديثه معها غالبًا همسًا.. عندما ينشغل الأخرون .. تفضحه ضحكاتها .. يغار الآخرون .. يهددون:

– سنبلغ أم مجدي.. هاتوا التليفون..

يسخر منهم .. بقِلة أدب، وصوته يبح:

– إيه يعني .. هى عارفة .. أنا مَيِّت من السنة اللى فاتت..

يزداد الضحك.. تلقي برأسها علي كتفه.. يغار عليها شاعر الشلة.. غيرةُ مُرة .. يقصدنى كي أحضر له كوب ماء .. فيسارع بالجلوس إلى جانبها.. فى الجهة الأخرى من الأريكة.. ساقاه طويلتان هو أيضًا ..

لكن جسمه ضخم ممتلئ .. أعود بكوب الماء.. نسي .. أقف أمامهم.. ثلاثتهم .. بكوب الماء، يتظاهر الشاعر بالبحث فى جيوبه عن آخر قصيدة.. أحتار فى غابة السيقان، لكن ساقيها واضحتين.. أذهب للجلوس على الكرسى المنخفض.. بجوار باب الصالون .. يحاول لفت نظرها بقصائده :

– اسمعوا يا جماعة آخر قصيدة كتبتها..

لايصمُت الرسام الشهير بسهولة.. فى وجودها.. يبدو الغضب على شاعرِنا.. يتفق الجمع على الإنصات .. يبدأ الإلقاء .. تتناول سيجارة من إحدى العلب .. يشعلها لها الرسام الشهير.. ممنوع هو من التدخين .. غير مبالين بالقصيدة .. يبدو على صوت الشاعر الهم والضيق .. تسأله .. لإبداء اهتمامها:

– هى القصيدة دى أنت قدّمتها..

يرد بود:

– لأ .. دى لسه جديدة..

سَمِعتُ من أمي أخبار العروس التى فرضها أبوه عليه – عمدة البلدة – وهو لا يطيقها .. لم يَعُد يسافر إلى البلد..

تعلو صيحات الإعجاب بصينية البطاطس الشهيرة .. من أقصى ركن الصالون .. حيث يقبع تمثال الفتاة الإغريقية المرمري.. ينتحى

بجواره المحامي الكبير عاشق الفن، ومعه العضو الشهير فى لجنة تطوير القاموس .. ينفردان بالصينية .. على المائدة الصغيرة .. يُجاهِر المحامى :

– ربنا يعمِر بيتك.. يا أُمِنا .. دايمًا كده تجمّعينا .. وتأكلينا .. زهقت يا عالم من الأكل الصحى بتاع المدام .. هى وبناتها..

ينتبه الباقون لاختفاء الصينية .. يهب الشاعر لانتزاع نصيبه .. ينحيها جانبًا نجم لجنة القاموس.. يُكشِر :

– يا أخى أنت ب تيـجى لك زوادة من بلدكم.. وأنا مـقطوع من شـجرة.. يشتد النزاع .. بين ضحكات أمي وعايدة فى محاولاتهما لقسمة العدل ..

التقطت أذناى خطاه الثقيلة على الدرج.. واضِحة رغم الضجيج والصَخب.. هو .. عم مليم.. ياه .. نسيت أن أخبر أبى ..

حضر الأسبوع الماضى .. استقبلناه أنا وأخي الأصغَر .. لم يكن غيرنا بالبيت .. يُضحِكنا بحكاياته، وتقليد الفنانين .. يلفت نظرنا إستعاذته من الشيطان الرجيم عند مروره بلوحات أبى .. يطلق عليها أسماء خاصة به.. غير الأسماء التى نحفظها .. أسماؤه هى أسماء لعفاريت .. يؤكد لنا وهو يشير إليهم :

- ده عفركوش .. رفيق حروب أبو زيد الهلالى .. وده هو شمهورش.. عفريت المصباح.. والمتكتف هناك ده .. الممسوخ .. هو كبيرهم .. ربنا يهدى أبوكم.

كنا نحتار بينه وبين تعليقات الشلة:

- دى لوحات سابقة عصرها .. مدرسة جديدة - تجسد معاناة الإنسان .. المُكبَل بالأصفاد .. مَسَخَتهُ المحَن.. ولازم يقدم قرابين ..

أتساءَل :

- ليه ب يَرمى مفرش مائدة الصالون .. أو حتى كوفيَته.. على تمثال الفتاة الإغريقية فى ركن الصالون ، أول ما يدخل .. يستأذن ليُصلى فى غرفة الأولاد - غرفتنا - إذا سمع الأذان.

حكى لنا أبى :

- عمكم محمود .. مليم .. كان صبى فى ورشة جدكم - الله يرحمه - من أكثر من أربعين سنة .. كان يوصلنى للمدرسة الصبح .. ويجيب الخضار لجدتكم .. قبل ما يروح يفتح الورشة .. أمه أسمته مليم علشان يعيش .. عيالها كانوا ب يموتوا.. راح اشتغل مع الإنجليز فى ورش الأورنُس .. أيام الحرب العظمى .. اغتنى ، وفتَح ورشة .. ومع ذلك .. يحب يزورنا .. ويساعد فى البيت .. زى زمان .

عـرف مليم من أخى - فى تلك الزيارة - بسـوء التـفـاهـم بين أبي وعـمي السـاكن بـالطابق العلوى .. بخصـوص اسـتـقبـال الأصـدقـاء فى المنزل .. أخبـرنا أنه قـادم لإصـلاح ذات البين .. وها هو .. كـالعـادة .. يثـير جلبة مـع كل من يقـابله عـلى السـلم .. قُـمـت مسـرعًـا .. لم أفـتح البـاب المؤدي للصـالـون .. حيث الجـمع .. بل أسـرعت لفـتح البـاب على الردهة.. كـانت أمى تُـعِد الأكـواب على صـينية .. تبـادلنا التـحـيـة.. مـر باللوحات التى تغطي الجدران .. أسمع إستعاذاته من الشيطان الرجيم .. يتمتم ناظرًا إليّ :

- عندكم ضيوف .. هه .. غمز لي بعينه ..

حَـمَلَ الصـيـنيـة عن أمي .. كـمـا اعـتـاد .. دَخَلْتُ وراءه .. دار بالصـينية .. يحـيي الحضـور .. توقف أمـامـهـا.. بجـسـمـه الضـخـم - مشدوهًا .. فاغرّ فاه .. إعتَّدَلْتْ .. كفّ الرسام الشهير عن مشاغباته .. أومأتْ إليه برقة:

- أهلاً وسهلاً..

لم يَرُد .. يحملق .. ساد الصمت .. كَرَرَتْ :

- أهلاً وسهلاً .. عرِّفني بنفسك..

بتلقائية .. جَرّ الكرسى المنخفض .. وضـعه أمـامها مباشرة .. ارتمى عليه .. صائحًا :

- أنا خدام الجمال .. قتيل الخِفة والدلال..

ضَحكَت بنعومة .. ضج الآخرون بالضحِك .. لم يأبه لهم:

- أنا مليم .. والله مليم ..

حاول أبى الإيضاح .. أشارت إليه خِلسة ألا يتدَخل .. قربَّتْ رأسها منه .. تضَرَّج وجهه بالحُمرة.. ألحَّت:

- مش ها تقول لي يعنى إيه ..

احتبس صوته .. يزدرد ريقه بصعوبة .. بالكاد نسمعه :

- أنا مليم .. أخوه - أشار باتجاه أبي - الكبير .. يا روايح الجنة.. تحت أمرك .. تحلَق الخبثاء حول الأريكة المنخفضة .. لا يكتمون ضحكاتهم ..

تماسك .. استطرد :

- أنا لَفيت البلد من شمالها لجنوبها .. اشتغلت فى كل حاجة .. كسبت كتير .. والأشيا معدن .. لكن ما شُفتش زيَك يا جميل ..

تنظر إليه .. بَدَت الغيرة علي الجمع .. تشاغلوا عنهما لما بدا حديثه هامساً وهى تنصِت إليه .. نادت أمي .. هَبَ واقفًا .. عاد حاملاً صينية الفاكهة .. وضَعها حيثما أتُفِق .. جلْس بسرعة .. يستأنف الهمس .. تتخلله ضحكاتها الناعمة .. لم ينتبه لفضولي ، عندما اقتربت

منهما بمقعدي .. كان ينظر إليهم الواحد تلو الآخر.. وهم منفردون .. أو يتناقشون أمام اللوحات .. أو الكتب فى المكتبة .. ويعلق :

– أما الجماعة (المثكفين) دول .. كلامنجية على الفاضى .. عندكِ الجدع الرسام الطويل المعصعص ده .. مش راحِم نفسه ، وأيامه معدودة.. وابن العُمدة .. دايمًا يَحكى أنه مظلوم .. ويستلف من طوب الأرض .. والمحامي العايق ده .. عايش على فلوس أبوه .. قال إيه كل هدومه من فرنسا بعد ما رجع من البعثة.. وإلا بتاع (الجاموس) ده .. زى الدودة .. لا يشبع .. يأكل من ساعة ما جاء .. أهو ده اللي مش عارف شغلته إيه .. أما صاحب البيت ده، حكايته حكاية .. مخاوي .. ويموت فى العفاريت .. وعنده تفانين .. يميزهم من بعض .. نهايته .. أنا اللى باقى لِك .. تكاد تموت من الضحك .. تحلَّقوا حولهما مرة أخري...

هرع أخي الأصغر .. مُسرعًا .. صحى من نومه على الصَخَب.. اقتحم الصالون في بيجامته، حيث يحتشد الجمع حولهما مُقهقهين.. إحتك بكتف مليم.. كاد يُوقِعُه .. دون أن ينظر إلى أحد .. انتزَع كوفيه مليم .. اتجه إلى تمثال الفتاة الإغريقية .. صاح مليم برجاء .. كمن يبتهل :

– ليه كده يابني .. سيبها .. الله جميل، يحب الجمال ..

مُقدَّر ومكتوب

أتوارى عنهم ما أن يبدأوا طقس لف السجائر.. يكادون لا يحلظون اختفائي .. هي نصف ساعة بعد ستار كل فصل .. المسرح مكتظ.. لايمكن تجاهل خفة دم الأستاذ، ولافتنة الراقصة السابقة .. وما تُّعِد به صورتها في الإعلانات، واسمها الذي لمع في حادثة الشَبكَة الشهيرة.

بانتهاء فاصلنا الموسيقي، نقضي نصف الساعة هذه في بدروم المسرح..

نظروا إلي شذرا عندما أخرّجت كتاباً في الليلة الأولى، وقد أيقنوا بعدم مشاركتي طقسهم .. هي الجفوة .. سعَوْا للتخلص مني .. لولا براعتي .. كما أخبرني المُلقين، دافع عني بضراوة .. ينزل من (الكمبوشة) .. يجدنى أقرأ في ضوء مصباحه أسفل مقعده المرتفع بدرجاته الخمس.. ذات ليلة سألني بعد نزوله للاستراحة:

- يابنى أنت عملت لهم إيه .. دول مش طايقينك..

- ولا حاجة .. أجلس بعيداً عنهم .. لا أدخن..

عيناه نفَّاذتان .. ينظر إليّ في ضوء مصباحه الخافت .. مدَّ يده، أمسك الكتاب بيدي، أدارَه ليواجه المصباح .. عدَّل من عدساته السميكة:

- إيه اللي معاك ده .. الإلياذة ..

فرَّ الكتاب بسرعة .. ينظر إليّ بين الفينة والأخرى .. لم يذهب لتناول الشاي كعادته .. جلس إلى جواري، أكمل حديثه مُغَمغِمًا:

- تستاهل .. بس أنت عارف بَقيِّتها..

- الأوديسَّة .. كل فترة أعيد قراءتهما .. بين قراءات أخرى ..

قاطعنى ممسكًا بيدي يعطيني الكتاب، بدأ عليه إصرار غريب:

- أنا عندي نسخة أكبر وأدَق .. مُتَخصصة.. أحفظ مقاطِع منها عن ظهر قلب (كنت أحملق فيه، أدهشنى حماسته المفاجئة، وصوته المسرحى الجهورى) .. لا تنخدع بمظهري.. وما أنا فيه .. تلك دراستي ، ومدرستي (دمعت عيناه) هل هذا هو المسرح (يضرب الهواء وهو يشوِّح بيديه ويدور حول نفسه).

غادرني مسرعًا .. قمتُ .. نستعد لموسيقى افتتاح الفصل التالي .. جلستُ بينهم .. الزملاء .. أنظر إليهم .. في أعيُنهم، غير مُصدَق.. عُدنا إلى بدروم المسرح .. يتجاهلونني بالاندماج في طقسِهم.. قمت إلى مقعدي أسفل كرسي الكمبوشة .. أرقُبُهُ .. أعلى

الكرسي .. مُندَمِج .. في الأداء .. لا يكتفي بالترديد والتلقين .. يؤَدّي كل الأدوار .. تعددت لقاءاتنا .. كم كانت ممتعة..

تلك الليلة التي اتفقنا فيها على الحديث عن "أوديسيوس" .. هرعت إلى الأسفل .. الليلة باردة .. بقعة الضوء الخافتة مَن فتحة الكمبوشة، تقع على سيدة تتشح بالسواد .. تجلس على مقعدي، أسفل مقعد الكمبوشة المرتفع .. يقف هو إلى جوارها .. الحديث هامس .. وقفت بعيداً ومعي الأوراق .. تركها فجأة، يؤكِد إحضار الشاي لها بسرعة .. إتّجه ناحيتي :

اجلس مع السيدة إلى أن أعود.

توَجّهتُ إليها .. إلتفتت إليّ، وبصوت خفيض:

– أهلاً وسهلاً..

لم أُصَدِّق .. كانت قد اختفت فجأة .. الممثلة التى لمعت بعد أن كانت راقصة رقيقة .. وصفها النقاد " راقصة الطبقات الراقية".. صورُها ملء الأفلام الأبيض والأسود ، مازالت فاتنة برغم شحوبها وآثار تجاعيد .. عيناها السوداوان الساحرتان .. تزيدها الملابس الثمينة السوداء فتنة ونُبل .. وجدتني أسألها:

– أين أنتِ يا ستِ الكُلُ..

نظرة خاطفة .. أحسست بضيقها لأني عرفتها .. مازال الصوت الخفيض:

- فى الدنيا .. كل شئ بأوان .. مقدر ومكتوب ..

الرقص .. الراقصة .. التنُّصُّل منهما فى العلن .. التمجيد والسعى إليهما في الخفاء .. غموض أزلي .. خفت أن تظنني صحفيًا أتطفَّل .. ألمحتُ إليها:

- بمنتهى الصدق .. تركتِ فراغًا .. يذكُرك الكثيرون..

تهلل وجهها:

- كتر خيرك .. يرجع الفضل للأستاذ .. علَّمني التمثيل والإلقاء (ضحكَتْ بغموض، أحمَّر وجهها قليلاً) .. وبقى معايا من أستوديو للتاني..

عاد يحمل كوبين شاي.. انسحبتُ .. يتهامسان .. لم أجدها في الاستراحة التالية .. هممتُ بعرض الأوراق عليه.. أزاحها جانبًا.. يبدو مهمومًا .. أشرت إليه قبل أن أغادره، كي يستعد لفتح ستار الفصل الأخير.. صوته قادم من كهف سحيق:

- انتظرني بعد ستار النهاية .. عايزك شوية..

الليلة باردة .. وقفت أمام الباب الجانبي للمسرح .. أتى متدثرًا في معطفه البالي ، والبيريه الكالح بلا لون .. يحمل حقيبته الجلدية العتيقة.. استَنَدَ إلى ذراعي .. يدفعني برفق باتجاه النيل .. الجنون أن

نناقش أوديسيوس هنا .. بخطى بطيئة .. لا أعرف إلى أين يقودَني .. نطق فجأة :

– ستطرد من مسكنها .. لم يعد لديها مال ..

– أنت تعرفها من زمان ..

صمتَ ثانية .. مازلنا نخطو ببطء .. لا يوجد سوانا بجوار الشاطئ ..

– عرفتها من الأفلام ، مثل كل الناس .. أرسلني إليها أحد أساتذتي في المعهد .. تريد أن تترك الرقص إلى التمثيل..

– يعني أنت أستاذها في التمثيل ..

أكملَ .. لم يُعرني اهتمامًا :

– ذهبت إليها .. أحسَنَتْ استقبالي .. براعتها مذهلة (دمعَت عيناه في الظلام) .. لم تكن حتى تقرأ أو تكتب .. تتعلم بسرعة .. ترقص لتستريح من دروس الإلقاء ، تقول لي :

" لا أستطيع الحياة بدون رقص .. " لم تخبرني أبدًا كيف بدَأت .. فقط تقول"مقدَّر ومكتوب" .. تُذكِرني براقِصات الهيكل .. لهُن قُدسية.. تبادلنا النظرات .. يقصد فى الديانات القديمة .. استطرد :

– تولَّد لديَّ خوف عميق عليها .. لبراعتها .. تصطحبني معها في كل استديو .. أنصحها .. تندم عقب زيجة فاشلة من أحد النجوم ..

تبكي على كتفي .. مقدر ومكتوب.. أغتاظ منها .. لم أستكمل السنة النهائية أبدًا .. أصبحَتْ هي وظيفتي .. حتى التلقين في المسارح .. زي ما أنت شايف ..

وصلنا إلى مسكنه .. بدروم بالروضة .. فراش مُحاط بالكُتب والأوراق .. جلس على مقعد متهالِك .. تموء قطة بالباب الموارَب .. قفزَت إلى حِجرهٍ .. تلعق جلدها ويده .. جلستُ على حافة الفراش .. أتَحيَّن الفرصة للمغادرة.. عيناه مبللتان ، في ضوء المصباح المغطى بقمع من الورق المقوى.

أخرج رزمة من الأوراق المالية .. لم أنتبه من أين .. يبدو أنها "تحويشة" عمرُه، يغمغم:

– سأذهب غدًا إلى صاحب بيتها .. (نظر إليّ) سأجَهز كوبين شاي .. الجو بارد .. فين الورق والكتب اللي معاك .. أنا فاكر، ما تخافش .. أوديسيوس .. يا سلام على العظمة .. تعالى نشوف ..

نتحدث ونقرأ .. نال مني الإرهاق .. نام فجأة .. أقفلت بابه، خرجتُ إلى الشارع.. لاح ضوء الفجر .. توجهت إلى بيتي ..

في الليلة التالية .. النجوم مُتّعثرين .. أعينهم زائغة.. تبدو الكمبوشة فارغة ..

أصابتني رعدة غامضة.. هرعت إلى الأسفل .. أسفل الكمبوشة وجدتها واقفة .. في بقعة الضوء .. تنتظرني، شاحبة .. سلَّمَتني حقيبة بها كتب .. ترتعد شفتاها وعينيها دامعتين .. تبينت صوتها بصعوبة :

– زارَني بعد الظهيرة.. تعب فجأة .. اصطحبته في تاكسي إلى بيته.. إزداد تَعَبَهُ .. جلست معه .. رفض حضور طبيب .. قال لى فجأة أسلِّمك حقيبة الكتب ديه .. مات من ساعة .. مالوش حد .. قُلْتْ أبلغكم..

أميرتي ..

ربما لأني لم أجرؤ في اليقظة .. فقد بكيت في نومي ..

حزن وأسى اللاوعي ، أقسى وأشد مرارة منه في الوعي.. أفتعل إئتلافهما، بينما تسلل مرارتهما إلى أعماقي .. تتمكن منِّي..

يخيم الليل، أئِنُّ من تثاقله .. أصبحتُ أخشاه، وقد كان مأوى سعادتنا.. لن تحادثني .. كما قالت .. تهديدٌ .. حاولتُ تصوره رقيقًا .. تعلمْ أني لا أتحملهُ ..

أغضبها .. عندما يجتاحني جمالها .. أغرق فيه .. فيتخللني رحيق ربّات وأميرات، مُحيّرات.. مُلهمات .. قوام فينوس الجميلة .. بض ملفوف .. تشير بيمناها إلى البحر، حيث خرَجَتْ من زَبَدِه .. الحكمة في منيرفا، بثوبها الهفهاف .. يلف حنوها ودفئها .. يأبيان إلا أن يُطلا .. عُنق الشُجاعة اليكترا .. دقيق بللوري ، يمتد في حيرة .. مُتلفتًا، غير عابئ بالنسب الملكي .. في سبيل من تُحب .. عينا الجميلة هيلينا .. جريئتان نفاذتان، تقدحان شرر فتنة من لهيب، تشعان بألوان ، تتغير

بينما تخطو قلقة في الهيكل .. تهدأ .. لتتأمل الأفق ، غير عابئة بما سبّبته من آلام ..

لطالما أحببتهن .. تُعرض عنّي :

- .. تُحبهُن .. كلّ هؤلاء (تُحدِّق فيّ.. هما العينان) .. أنت تحيا في التاريخ في الماضي .. لكن أنا هنا .. حقيقة، واقع .. ألا تراني .. أنا هي أنا .. أبهَت .. يركبني الضيق، إذ أحسستُ بانزعجها .. ألعن الصراحة.. لا أخفي عنها أمراً .. صفاء روحها .. يحيل كل ما حولنا إلى صفاء .. لكن غضبتها كالإعصار .. تعصف بيّ .. أبرر لها:

- أنتِ كل هؤلاء .. تحمل روحك من أرواحهن.. لكن أنتِ من أحب، ولا أعرف منذ متي .. لستُ مُشوَّشًا ، ولا أحيا في التاريخ .. يأسرني جمالك، يملأ دنياي .. لا أجد حولي سواك..

صمتٌ .. أعقبه صوتها واجمٌ :

- يعني أنت أحببتهن كلهن..

- ومن منا لا تكمن في أعماقه روح محبوبه .. يظل هائمًا يبحث عنه .. يخطئ ويخطئ .. إلى أن يصيب .. يجدُه .. يرتمي عند قدميه .. معجزة التجسد .. تجسّدت الخيالات .. كيف لا أصدق، وقد قصصتُ عليكِ حكاياتهنْ ، واستمتعتِ بها..

ولأنها سافرت .. تمضي الأيام، والشهور .. ثقيلة .. سلوايّ في البحث عنها فيهُن .. أتأملهن .. وضعتُ صورها بينهُن .. يذوب الزمان والمكان .. فتخاطبني بلسُنهُنْ .. وصوتها .. ينظرن إليها ، باسمات .. فقد عُدنْ للحياة فيها ..

ماذا يغضبها .. وقد تركتنى للأوهام .. وهي هناك .. بعيدة ..

هـــي

حضـرتُ مبكراً، الأفـضل أن أترك لهـا المكان .. أنتظرهـم هنا .. أفضل من الاسترسال معها هناك .. في البيت، آخر أطراف الحديث:

– .. وما جدوى ما تفعله .. تكتب ولا أحد يقرأ .. تقرأ فلا نفهمك.. أغمغم .. تسمعني :

– لو لم يكن هناك من يحـاول الإبداع .. تخيلي .. مـا كـا سـيؤول إليه حال الإنسان ..

بضجر :

– إبدا ع .. اشـمعنى أنت .. ولا ترضيك كل هذه الكتب ..

كنت قد أغلقت باب الشـقة خلفي .. أستمتع بالصمت نازلاً الدرج.. وها قد حضرت مبكراً .

أجلس وحدي .. يدور حـديثـهـا في رأسي .. ياله من تكرار .. لم تُمكنها مكانتها العلمية ، ولا العملية من إدراك كوامن جذور الإنسـان.. توالى الحـضـور .. نتـجـاذب أطـراف الحـديث إلى أن يصل الضـيف

الكبيـر .. ترى مـا أصـابها .. تعلم الفـرق بين الجـدل، والشـجـار.. كم قـضـينا مـن أوقـات طويلة .. قـراءات ومـسـامـرات .. لم تكن لتنتـج تلك العلاقة ..

قال الضيف الكبير، ممازحًا .. ردًا على سؤال الأديبة الشابة:

– إلى الآن .. لا يعلم أحد .. هل كانت جادةً زوجة سقراط عندما قادت الجنود إلى مـجلسه .. ليقتلوه، أم كانت دعابة ثقيلة .. لكن المؤكد أنها لم تكن تعرف دوره ..

تسكعتُ في طريقـي للعـودة بعد انتـهـاء الندوة .. قد تكون نامت .. لا أعـرف من أين تسـتـدرجني للجـدل المفلس .. لا أريد أن أفـقـد حـلاوة جدال الندوة .. إنسللتَ بهدوء ، إلى غرفتي فوراً .. لم أعد أغلق الباب.. أتهيأ للنوم .. أقرأ قليلاً .. المصباح مضاء .. جاءت، واقفة بالباب:

– حـضـر ضـيوف وأقـارب .. سـألوه عنك .. لم أعرف مـاذا أقـول .. لِمَ تـأخرت .. هل تقابل هؤلاء الناس .. ماذا ستكسب من وراءهم .. ولا تجلس معنا ..

اعتدلت، أنظر إليها:

– من قال ذلك .. أحب أن أجلس معكم .. معكِ بالذات .. زي زمان .. لكن أين أنتِ ..

– تغضب عندما أصارحِك بحقائق ..

– ليس هذا هو السبب .. لا تخلو الحياة من مصارحات .. لكنك تقلدينها ، وقد غادرتنا .. كانت الوحيدة التي يحق لها أن تهاجمني هكذا.. لكنك لم ولن تعرفي أبدًا كم كانت تفرح بما أكتب، وتقرؤه عليّ .. بصوتها .. تصالحني .. آخر كل ليلة، بعد أن يُقفل علينا هذا الباب .. لن تعرفي أبداً .. يا ابنتي ..

جامبـــو

ذلك الصباح، مُضطجعة إلى جواري.. أطاحت بأوراقي إلى المكتب المزدحم .. شعور قديم أيقظني على وخز نظراتها، إلتقت أعيُننا .. ضحكَتْ، نفس الضِحكة الوادِعة .. ضحِكتُ غير مُصَدِق .. هو الوجه والصوت .. تُصرٌ الطبيعة على مُداعبتي، إستدرتُ مُستعيذاً.. تمالكتُ.. إستدرتُ إليها مرة أخرى، مازالت ضاحكة السن.. كما لو كانت تعرف ما أصابني.. تقبضُ على أنفي بأصبعيها مُداعبة:

– قلت لك أنت الفيل الأصلي ..

إعتدلَت جالسة إلى جواري، ومازلتُ ممداً أغالب الحيرة والدهشة..

الفيل ، جامبو .. هكذا يصفون عريسها في فريق الكرة .. فسرَّ لي هذا كثرة الدُميّ على شكل أفيال، مختلفة الأحجام والألوان .. مرحة، تحيّي بزلومتها في حركات ضاحكة .. تملأ حجرتها عقب مناسبات كثيرة، منذ عدة سنوات .. أعياد ميلادها، عقِب خطبتهما، وفي الأعياد .. أفيال كثيرة تزحم حجرتها مع الورق والكتب .. على الأرفف.. تحتفظ ببعضها في فراشها ..

في ليالي الشتاء، أمرُّ بحجرتها لإحكام غطائها.. يحيرني الفيل الضخم في فراشها.. يختص نفسه بكل العطاء، يحملق فيْ بعينيه الجامدتين رافعًا زلومته .. تحس بي .. تمتعض:

- أف .. أنا كبيرة .. أعرف أتغطى لوحدي ..

أغتاظ .. أذهب إلى غرفتي، أحكم غطائي .. وحدي ..

لأسبوعين مضيا، يزدحم المنزل يوميًا بصديقاتها وباقي الأولاد .. ينظمون نقل جهازها، جهاز العروس، إلى منزلها الجديد.. حقائب وكرتونات .. ضجيج على الدرج .. زغاريد وأغاني ، إتهامات بالغباء .. سيارات تزحم المدخل .. مع آخر حقيبة، وجدت كل الأفيال تملأ حجرتي .. وفراشي .. هى رسالة .. فالليلة ستمتلك الفيل الحقيقي..

التخطيط والتنظيم للذهاب إلى القاعة لم يتضمن إسمي .. كل ما قالته إبنتي الكبرى .. صائحة فيّ كعادتها :

- تروح هناك بدري ، الفندق في الضاحية .. وإعمل حسابك، هاتنزل السلم ماسك إيدها .. لغاية ما يطلع لك هو ..

تشير إليّ بإصبعها متوعدِة .. غادَرَتْ مُسرعة .. أسمع كعبها العالي لتلحق بالموكب .

هذا المكان - كما يصفون - هو صحراء على ما أذكر - لكني سأذهب ..

قبل الغروب .. لم تعد صحراء .. فنادق صغيرة متناثرة قضت على وحشة المكان .. الخدم في ثياب مزركشة ، ينظرون إليّ باستغراب .. جئت مبكرًا .. أوصلني أحدهم إلى القاعة شبه المظلمة .. جلست وحدي.. تناسب موسيقى هادئة .. اللون الوردي يغمر المكان .. الفيونكات علي ظهور المقاعد، مفارش المواقد ، الزهور في الفازات والأركان .. تذكرت مسألة السُلم ، وأبنتي الكبرى .. هببت واقفًا .. خرجت أرقب الدرج .. سأنزل بها هذه الدرجات العشر، يصعد هو العشر الأخرى في ثنية الدرج .. أسلمها له .. طقس التخلص من أنانية الغاب .. نزلت هذه الدرجات بضع مرات ، صعدتها .. لم أستغربها، لماذا أحسها صعبة ..

عندما ملأت الموسيقى الصاخبة المكان .. يملأ الضجيج أذنيْ، نازلاً بها في فستانها الأبيض .. هو الدرج .. كأنما لم أره من قبل .. شفيف دمعة ضاعف الصور حولي ، خفت أن تزل قدمي .. يدها في يدي ، هي يدها في الصورة .. عندما كانت تحيط كفها كلها بإصبعي، مبتسمة بسنتَّين في فمها على الأرجوحة.. لم أكن أرى وجوهًا .. وجدته أمامي فجأة .. مبتسمًا ، فرحًا .. لا أذكر ماذا تم في لقاء السُلم .. أكملا النزول .. أسرعتُ وحدي صعوداً إلى القاعة .. تقترب الموسيقى الصاخبة .. تداعبني خيالات رسمَتها هذه الجينات القاسية .. لا تراعي المشاعر .. تنقل وتبصم بلا رَويّة، تُحيي وتُعيد التاريخ .. بإحداثيات أخرى ...

أرقبها طوال الحفل .. عادت من جديد في إبنتنا، كما قالت لي مرة.. أن ستعود .. خرجت إلى الشرفة .. باقية الصحراء على الامتداد.. الظلام حالك .. يُطل نجم الشعرىَ .. كثيراً ما أرقبه، منفرداً عن باقي النجوم .. لا يغير مكانه .. يرقب الدنيا . ترى هل ينقل إليها أخبارنا ..

قال الأولاد أمس أنهما سيسهران معنا، للمرة الأولى بعد عودتهما .. أحس بالحرج .. لم نرتب مكان ليبيتا معنا.. نستعرض صور الحفل .. طالت السهرة مع تعالي الضحكات .. أعدّت لنا العشاء كما إعتدنا..

ببساطة إفترشا أرض الصالون .. فالأسِّرة كلها مفردة .. وغرفتي المزدحمة غير المرتبة ، هي الوحيدة بفراش مزدوج .،

غادر جامبو إلى عمله مبكراً .. جاءت إلىّ بعد وداعه ، والجميع نيام ..

وهي جالسة إلى جواري .. وأنا بين الدهشة واليقظة .. تلمّسَتْ بقدمِها الكتلة المغطاة عند قدميّ .. لم أكن أعيرها اهتماماً .. اعتدلت ، تسألني :

لم تنتظر.. جامبو الضخم .. بعينيه الجامدتين وزلومته، يطل علينا من تحت الغطاء .. في فراشي..

ليـــشا ..

بنهاية ذلك الصيف .. أصبحنا نكاد لا نفترق .. لم يكن حديثًا عابرًا .. على رمال الشاطئ منتصف النهار، يشترط قانون اللعبة .. أن يفصحِ كل من الموجودين تحت الشمسية – كل في دوره – عن مكنونِه .. مسني صدقها . صوتها .. تسخرن البنات من بساطتها .. حل دوري .. تجلِس مواجِهة لي .. تغطى الرمال قدميها الصغيرتين .. آثار حمراء على أظافرِهما .. بنطلون أسود طويل، مبتل من أسفله .. أزرار البلوزة بألوان البحر تشي بالمايوه الأسود تحتها .. مُشَمِرة الساعدين، قبعتها الخوص على ركبتيها .. ترفع نظارتها الشمسية أعلى شعرها الأسود الطويل .. يداعبه الهواء لنعومته .. لا أذكر ما قلتُه .. كُنت مهمومًا .. أنظر إلى الأرض .. الرمال .. أرفع عينيّ إليها، كم هما جميلتان عيناها .. سوداوان، تلمعان ببريق ساحِر .. لم تجفلا لعينيّ .. كنت أهرب منهما إلى الرمال .

انتهت اللعبة .. ساد الضحِك والسخرية من الآمال والأحلام.. والقفز إلى الماء بعد حرارة الأحاديث. يسير الجمع متباطئين .. العودة للغداء بالمعسكر .. العصرية حارة، نسمة باردة بين حين وآخر ..

وجدتَنى ألحِق بها .. مُنفرِّدة آخر المتباطئين .. لم تستغربني .. إلى الآن لا أعرف لم لحِقت بها .. لا زلت أذكر .. سألتني :

– لا تجس معنا .. ولا مع زملائك كثيراً ..

وجدتني أسارع بالرد :

– صراحة .. زملائي المُقرَبون لم يحضروا .. لكن أنتِ مع كل أصدِقائك .. رمقتني بطرف عينها :

– تبدو مهموماً .. ألاحظِك ، تلعب معهم .. سرعان ما تختفي ..

تستنطقني ببساطة .. لم أعتبرها مُتَدخلة في شئوني :

– أحس بالتعب أحياناً .. وكمان معي ..

قاطعتني :

– معك كُتُب .. مش كِده .. زميلاتك فتنَّ عليك .. زعلان من النتيجة.. إيه يعني .. ربنا هو من يكافئ الصادِق ..

أطرَقتُ صامتاً .. بهذه البساطة أزاحت عن صدري هماً ثقيلاً .. كيف لم أتمكن، أو يتمكن أحد من الوصول إلى هذه النتيجة البسيطة..

كانوا قد سبقونا كثيراً.. نظرتُ إليها .. كانت تنظر إلي.. تَركَتَ النظارة تنزلق تخفي عينيها، وضعت القبعة العريضة على رأسها.. أمالتها جهتي .. صاحت ضاحِكة:

- ياه .. ها نتأخر .. أسرع ..

كنا نبعثر الرمال ونحن نسرع الخطى .. أحس كأني أطير إلى جوارها .. كمن تَخَفف من أثقالٍ ، كان يحملها قهراً ..

أوشك الغداء الصاخِب على الانتهاء .. احتفى بنا الطباخ طيب القلب .. أجلسنا جهته متقابلين .. والمشرفة مغتاظة تُتَمتِم .. أكلت بنهَم .. ترقبني:

- تصَوّري .. منذ شهر .. أكاد لم آكُل ..

تضحك بخِفة .. تعبَث بالشوكة في طبقِها .. تتوالى مشاغبات الشلة .. لا نسمعهم، فالحديث ممتد .. لا أذكر أنني تحدثت باستِفاضة هكذا من قبل .. لم يعد أحد يشاكِسنا .. انتبهنا لا يجلس في الفناء غيرنا .. والموائد نظيفة .. انتهى الغذاء منذ حوالي الساعة .. صمتنا ، ضحِكنا معًا فجأة .. حملنا أطباقنا والأدوات إلى المطبخ .. شكَرنا الطباخ اللطيف .. صعدت إلى طابق الأولاد .. اتجهت هي إلى مبني البنات .

لم أستطع النوم في القيلولة .. هربت من سخافات هؤلاء الأشقياء، وقد خبأوا حقيبة كُتُبي .. خرَجتُ إلى البحر ثانية .. أسير مُتمهلاً، أبعثر الرمال .. من بعيد .. لمحت القبَعة .. أسرعت، جريت .. لم أصَدِق .. تجلس على سور الشاطئ .. قفزت إلى جوارها .. لم تنظر إليّ .. أبرر لها :

– العيال دول، زادت سخافتهم..

علقت ببساطة :

– والبنات كمان .. معندهمش دم..

نظرنا إلى بعضنا .. ضحكنا.. ضربنا كفًا بكف .. كم هي صغيرة يدها.. بأطراف أظافرِها الحمراء المدببة..

أستمر في التبرير:

– بحثت عنكِ علشان امتحانِك في الدور الثاني .. إطمئني، أول ما نرجع .. قاطعتني :

– عارفة .. أنت ها تساعِدني في المادة الغِلسة دي .. ولا إيه ..

تبادلنا نظرة خاطِفة .. ألمح عينيها خلف الزجاج الأخضر الداكِن .. قفزَت السور هابطة .. تجنَّبت مساعدتي :

– ياللا نرجع بسرعة .. علشان فسحة المساء ..

مرَّت ساعات مذاكرة العصرية، في كافيتريا الكلية .. كحُلم .. فرحة بعد أداء الامتحان .. يغمزن لها صاحِباتنا:

– قلنا لكِ .. ده سِره باتع .. بس هو شكله كِده..

أجلس في الحديقة المقابلة لمبنى الكلية .. بعيدًا عن الأعيُن .. أنتظرِها .. ستُعلن النتيجة ..

جاءت من خلفي .. مرّت بيدها على شعري .. حنو لم أحسسه من قبل .. فرحة بنجاحها .. تناديني :

- عصفوري المذعور .. (أحياناً .. عصفوري الخائف ، لا أدري ما الفرق عندها) .. أعلّق فرحاً لفرحتها:

- غريبة .. دائماً أتصوّر أنني ليث هصور .. (أرفع حاجبيّ، وأغلّظ من صوتي لأبدو مُخيفاً)..

تطوح برأسها للخلف .. تضحك بخفة منتشية :

- أراك دائماً كعصفور نجا بأعجوبة من بركة ماء .. ينفض الماء عن ريشه بصعوبة .. يرتجف .. يتلفت حوله .. يحس أنه الآن هدفاً للمُفترسات .. تربت ابنتي على كتفي برفق .. لم يُعد على رأسي شَعر .. ابيّض الباقي .. استندتُ إلى ذراعها .. قُمت على مهل.. أنظر إلى عينيها .. فرحة ..

نجحَت هي الأخرى .. في نفس المكان..

تُرى .. هل كانت تستشرف أمُها حالة .. أحياها الآن..

تمثال فاروق

يخشى عليه من الهواء الطاير .. أفخم الملابس لحسن، يطبخ له بنفسه .. لا يؤخر له طلبًا .. لم تخف واقعة الطربوش الثمين على أحد من الجيران، فهي المرة الوحيدة التى ارتفع فيها صوت حسن ليقنع أخاه الأكبر محمد بأن الطرابيش فى انحسار وسيسخر منه زملاؤه كم عانى حسن من طيبة قلب أخيه الأكبر محمد ... لا يرى محمد حوله سوى حسن..

أرقب الرجل يتنقل على السلم الخشبي العالي، قرب الطابق الأول لمنزلنا .. يستند على عارضة خشبية ربطها بالشرفة المقابلة لشرفتنا.. يربط بالعارضة أثواب القماش الحمراء الكبيرة، مزركشة بنقوش هندسية لاتدل على شئ .. سوى ملء الفراغ بتكرار ممل.. تتوسط كل ثوب دائرة حمراء تحمل اسم المعلم مخيطًا بالقماش بخط ردئ .. غير واضح هل للدعاية، نحن هنا لا نعرف غيره .. أم يخاف عليها من السرقة .. يدور على السلم، وأحبال الليف الخشنة حول رقبته، يكمل السرادق .. الليلة عزاء جدي الطيب القلب .. محمد ..

يجلس حسن في الركن الذي اكتمل من السرادق .. حديثه هامس مع خال أبي .. فاروق .. نادراً ما نراه، أسمع عنه الكثير .. يتحدث عنه أبيْ بإعجاب مشوب بالقلق .. ثلاثتهم عشاق للفن .. لكن لفاروق باعًا طويلاً فى عالم المال .. ما يفتقده أبي وعمه حسن، إذ اكتفيا بتعليم الفنون للطلاب، والاشتراك في بعض المعارض ...

اقتربت منهما بحذر .. بين أكوام الأحبال الخشنة ورُبط المقاعد المتناثرة بين أكوام السجاجيد الكالحةِ المتربة .. يقطع ضجيج مرور الترام حديثهما الهامس .

التفت جدي حسن جهتي مشيراً بيده :

– تعال سلم على جدك فاروق ..

نظر إليْ .. أعرف أنه يعرفني .. لكن لا يتخلى عن مكره وتجاهله للآخر، واضح في عينيه الحادتين .. بينما يضغط على كفي بكفه القوي.. أعرفه بنفسي، أرفع صوتي متعمداً :

– أنا الابن الأكبر لحسن التاني ..

لا يستطعم النكتة، أو تجاهلها .. لا يبتسم أبداً، يخرج نفسه من الحرج:

– عارفك يا غلباوي .. زي أبوك.. في سنة إيه ؟

تعمدت عدم التفصيل :

- قربت أروح الجامعة ..

يربت على كتفي .. يده ثقيلة في ساعده القوي البادي من قميصه ذي المربعات وبنصف كم .. فهو مغرم بالمعادن .. لا يكف أبي عن حكاياته عن مهارته في نحتها وحفرها، أو قوالبها تمهيداً لصب التماثيل البرونزية .. تزين قصور وفيلات المشاهير، والقنصليات والسفارات .. ومنها ما يعرض بالخارج ..

انهمكا في الحديث .. بتثاقل .. فقد عدنا بالكاد من المقابر والوقت لايزال عصراً .. طلب مني جدي حسن إحضار شاي .. إلي أن يجهز الغداء .. أحب أن أتنصت على حديثهما .. بسرعة ناديت أخي .. أطلّ، أخبرته من الشرفة .. عدت أرقب الرجل على السلم .. يتنقل .. يغني أغاني كلها عن العالي أو العلالي .. نخيل أو ناس .. بينما أعطي أذني لحديثهما، جدي حسن مع الغامض، خال أبي .. فاروق .. فلديهما أكثر من أربع ساعات .. والمنزل مليء بالسيدات .. ومذياع القرآن طوال الوقت منذ الصباح .. فضّلا البقاء هنا ..

قال له جدي حسن :

- والله كويس .. عرفت تغير نشاطك .. مكانش صعب عليك ..

بوجهه العابس :

- ليه صعب .. الحكاية هي قوالب وبوتقة كالعادة .. وبدل حرارة الفحم، بقت كهرباء.. وبدل المعادن والبرونز بقى بلاستيك .. زمن البلاستيك ..

- يعني خلاص مفيش شغل معادن ..

يزهق سريعًا:

- أحيانًا أحِن للمعادن، أشتغل في الميداليات والكؤوس .. لكن تماثيل لأ .. الناس بقت تخاف منها (يغمز بعينه مشيراً إلى ذقنه) .. حدّ كان يصدق .. يا أخي إنسى، مافيش فن ولا ذوق .. شايف المباني.. انتهى، قوالب وبس ساد صمت، تحركت قليلاً ... مع تنقل الرجل .. لا يزال على السلم ، يغني .. يرمي بطرف الحبل الليفي إلى مساعده على الأرض .. يربط له طرف القماش الثقيل .. يسحبه لأعلى .. يثبته بالحبال على العارضة الخشبية في الجهة الأخرى. أوشك علي الانتهاء .. ناولته أمي كوب شاي من الشرفة .. ارتفع صوته يشكرها مع الغناء للعلالي .. مال رأساهما مرة أخرى، سيكملان الحديث هناك .. تحركت مقتربًا بحرص .. سأله جدي.

- وعرفت تجيب فلوسك منهم إزاي.. دي مغامرة .. دول ناس يخوِفوا .. بدون إكتراث، برقت عيناه بحدة:

– ده حقي .. كانت المغامرة أني أعرف التمثال فين .. لأن الأوراق معي .. لكن فين الموضوع.. التمثال، وفى الهوجة دي ..

اقتربت أكثر .. هو ده الموضوع.. منذ زمن طويل يقص أبي علينا حكاية تمثال للملك فاروق – زي أجداده – شارك أبي فيه صغيراً .. سيوضع على القاعدة الرخامية الفخمة وسط الميدان – سُمي بالتحرير فيما بعد – لكن قامت الثورة ..

فاز رسم وتصميم جدي حسن في مسابقة التمثال .. وبالصدفة رسي عطاء التنفيذ على خال أبي .. فاروق .. ده اللي جمع الشامي على المغربي كما تقول جدتي .. لذلك عمِل أبي معهما أيام دراسته للفنون .. يحضر التصميم، ويروح المسبك .. قطعة قطعة، يصف لنا براعة ثنيات قماش الملابس الملكية ترصعها الأوسمة، والشارب والملامح .. كم أتعبوه .. خاصة في مشاكلهما في العمل .. إلى أن حضر توقيعهما بالحفر على قاعدة التمثال .. براعة تضارع تمثال جده إبراهيم باشا .. لكن بأيدي مصرية .. كما أراد فاروق ..

زاد إشتياق جدي .. سأله :

– وعرفت مكانه في الظروف الملخبطة دي وقتها إزاي ..

نظر إلى جدي حسن بعمق .. تلك النظرة الأخرى، ليستا عينا الفنان :

– سألت في مصلحة القصور الملكية .. في القلعة .. لقيت هناك ضابط صغير .. لأنهم حلوا المصلحة طبعًا .. ما بقاش فيه قصور ملكية..

– طبعًا .. ونقلوا كل العمال والمهندسين ، وحتى الفنانين للأشغال العسكرية ووزارة الأشغال ..

– فعلاً .. سألت هنا وهناك .. دوخة .. وبعدين فكرت شوية .. داهية زي التمثال ده ، وزنه حوالي طن .. هايعملوا فيه إيه .. وهم مش فاضيين لا للفن ولا لغيره، يكسروه ولا يسيحوه .. أكيد يخزنوه .. وفي مكان قريب علشان النقل .. لحد ما يلاقوا له صرفة، يسجلوه عهده .. أو ينسوه ..

– فاكر .. إحنا سلمناه في عابدين .. علشان يبقى قريب يوم الحفل ..

– علشان كده، أنا قلت إما في قشلاق العباسية أو وادي حوف .. لقيته في بدروم قذر في العباسية .. وعليه السلاسل اللى نقلوه بها ، خربشوه وشوهوا أطرافه اللي تعبنا فيها .. كنت هاعيط على التعب ..

– وبعدين .. عرفت تدخل إزاي..

– لقيت هناك شوية عمال كانوا معانا .. وصلوني لضابط طيب، فهمته الحكاية .. دخلت معه، باين عليه بيفهم في الفن، قال أنه

معجب بالتمثال .. وشاف توقيعنا بالحفر بالأزميل على القاعدة .. فاكر ..

– آه .. فاكر .. ياخسارة..

– المهم، وريته الورق .. فحصه، قلت له "ذنبي إيه أنا وعيالي .. كل المصاريف والخساير والديون .. " قال لي أكتب طلب وأصبر شوية .. إستلمه مني ووقعه .. بقيت أروح أسأل .. قسطوا لي المبلغ ، كل سنة آخذ جزء ..

مختلفان كل الاختلاف .. كيف تلاقت العائلتان .. في ذلك الزمن البعيد .. أكيد السر عند جدتي .. أهو صيف .. ها استنى لما تروق وأعرف ..

أحفظ كل شخصيات مجموعة الصور التي تحتفظ بها جدتي، في صندوق مُذهب عليه راقصة فاتنة من ألف ليلة وليلة .. تغري أخي الأصغر – كما كانت تفعل معي – كي يكف عن العبث والجري حولها في الغرفة ذات الشرفة الواسعة .. فيصطدم بأثاثها، يوقع التحف التي تعتز بها .. وجدي غالبًا نائم أو يقرأ القرآن في غرفته .. تقوم، تنظر إلينا، تذهب إلى تلك الضلفة .. تحضر صندوقها السحري .. تتشاغل به .. أترك كتابي وأجلس إلى جوارها، يسرع أخي بالوقوف أمامها .. يحملق ويخطف الصورمن يدي، تغضب مهددة بجمعها وإخفائها .. تتوالى الصور، وتتولى هي التعريف بالأشخاص .. منهم من مات،

ومنهم قريب أعرفه، ومنهم لا أعرفه، حتى جيران رحلوا .. يتراوح صوتها بدرجات .. حميمة، جادة، صمت ، يبدو في عينيها حزن، زاد إحساسي بحزنهابعد أن كَبرتُ .. يرتبط حزنها بظهور صور أخيها الأصغر .. فاروق .. أسألها عنه، تتبدل نظراتها الحزينة .. إعجاب، وبحماسة:

– ده أذكي خلق الله .. أبويا علمه برغم ظروفنا الصعبة .. وصّاني عليه .. أساتذته كلهم أجانب .. بقى يعيش ويأكل ويشرب زيهم .. قولنا ده اتجنن أنظر إلى الصور .. أسألها :

– هو دائمًا لابس شورت .. وبيلعب حديد ولا إيه ..

– إتعلم منهم في مدرسة الفنون .. النحت في المعادن، وصهرها وصبها في قوالب وتماثيل برونز .. وكان يروح يلعب ويعوم معاهم .. وبقى يلبس برنيطة زيهم .. زعلت العيلة منه علشان ساب الطربوش..

رأيته مرة أو مرتين .. لا تبدو عليه حميمية اللقاء .. لا يحاول التعرف على أحد .. ويبدو أن هذا ما يحزن جدتي .. أخته الكبرى.. التي رعته ..

كنت معها في زيارته، صغيراً .. الأحاديث عابرة .. ظللنا بالصالون.. لم تهتم بنا زوجته .. لم أرَ أو ألعب مع أحد من أولاده الكثيرين .. قال فجأة :

– في سيارة رايحة قرب بيتكم .. إيه رأيكم توصلكم ..

نجلس خلف السائق .. لمحت دموع جدتي ..

ذلك الحزن النبيل .. جدتي .. هزل جسدها .. فبرغم المرض الطويل لجدي .. إلا أنهما كانا يتسامران .. أتسقط منهما كلمات "أيام الكساد .. المعاش .. سفر حسن للسودان .. بيع مصاغ .. ورث كله مع فاروق ... " سرعان ما ينتبهان لوجودي .. يتضاحكان ..

والآن لا نفارقها .. لم تعد تتكلم كثيراً .. دائمًا تصلي .. تسرح عيناها بينما تسمع الآيات طوال اليوم ..

ليلة الأربعين، سألتها:

– هو جدي فاروق مش ها ييجي ..

لم ترد .. لم يعد هناك أحد بالصالون .. قالت لي :

– إطفئ النور وتعالى .. أنا عارفاك .. مش ها تبطل سؤال عنه ..

جلسنا في الردهة .. أحضرت الصندوق .. الصور تحل عقدة لسانها :

– جدك محمد (الله يرحمه) ربى أخوه حسن، ونسي نفسه .. وأنا فضلت متفرغة لأخويا فاروق .. نصرف من المعاش وورث بيتنا القديم، اللي بقى ناطحات سحاب، وكَبّرت .. لكن فاروق وحسن

درسوا الفنون مع بعض .. وكانوا أشقياء ، بيخروجوا مع البنات الخواجات .. وكان فاروق يحكى عن جدك محمد زمان.. يقول لي " أنه لقىَ واحد أنتيكة .. أخو صاحبه حسن.. قاعِد في البيت على طول، أو يروح الذكِر .. وما فيش غير كده، ويضحك "كنت مستغربة .. ما أنا كمان قاعدة في البيت .. ومن غير ذكِر .. حتى كان ساعات فاروق يحِن عليا ويفسحني .. من ساعة مدرسة الفنون خلاص .. شلته والبنات وخلاص .. يعنى أكيد بيضحك عليّ أنا كمان .. مع أصحابه .. سألته مرة عن (الحاج محمد ده) .. قال لي : "ده رجل طيب .. بيشتغل في سباكة المعادن، بقى ريس في عنابر السكة الحديد .. فنان محترف في المعادن .. إستنفدت من خبرته كتير .. بس هو مالوش هم إلا أخوه حسن .. ومش عايز يصدق أنه كبر .. ولازم يسيبه في حاله .

الحكاية مشوقة .. لن أتركها حتى تكملها :

– وبعدين يا تيته .. إيه اللى عرفِك به ..

صمتت .. سرحت عيناها .. إبتسامة ساحرة .. كانت قاتلة زمان:

– في مرة جه فاروق .. اشترى بدلة جديدة .. شيك قوي .. كان بدأ يشتغل مع مقاول ديكورات فِلل وقصور .. سألته " ها تتجوز .. طيب قول لي .. ضحك وراح وقف قدام المرايا، رحت

أضبط له الكرافتة .. طول عمره لا يضبطها .. قال لي : لأ .. ده حسن .. بس عروسته وشغله في الصعيد .. المشكلة بقيت الحاج محمد .. مش مصدق .. ها يتجنن .. جواز وسفر .. حاجتين عمره ما عملهم .. إزاي الصغير ده يعملهم .. ولوحده.. "يكاد يقع من الضحك .. ضحكت معه .. ليلتها : من الشخصية المضحكة قوي كده ..

بعدها بفترة قصيرة، جاء فاروق فجأة وقال لي " فيه معرض الخميس الجاي .. وأنت معزومة ياست الكل .. نخرج مع بعض زى زمــان.. " أنا قلت أنه اتجنن .. إيه اللي فكره .. بس أهي فرصة .. لي زمان لم أخرج .. إلا مشاوير عائلية .. جهزت نفسي شوية زي زمان .. سهرة يعني (أضحك تزجرني : بس يا واد) وكعب عالي ..

كانت شوية شباب عارضين لوحات وتماثيل في قاعة على النيل .. جاء حسن يسلم عليّ .. في يده رجل قصير ممتلئ .. طيبة وجهه وملامحه لا تُصَدَّق .. لا يقول إلا " ما شاء الله .. ما شاء الله" .. يرتدي جلبابًا صوفيًا فخمًا وبيده سبحة معطرة بالمسك .. ترك أثر رائحته في يدي .. ده الحاج محمد .. تجولنا معًا في المعرض .. يتعمد الأشقياء أن يتركونا معًا .. لا أنسى نظرات جدك محمد .. وداعة أهل الجنة .. لا يعرف الكلام

الكثير .. لكن عينيه قالت كل حاجة (دمعت عيناها) .. مد لي يده فجأة .. مددت له يدي .. صفق الأشقياء، متجمعين كلهم حولنا .. كانوا يرقبوننا ..

وأول خلفتنا كان أبوك .. حسن ..

البـــروم !!

PROM

إنشق ظلام آخر القاعة الصاخِبة عن فراشة شاردة .. ترفل مُسرعة باتجاهنا .. تتلفَّتُ حولها .. ثوبها الهفهاف بألوان طيفٍ زاهية، تزداد لمعانًا كلما إقتربت إلى الحَلقة حيث باقي الفراشات في غابة من الأطياف .. تتكشف علينا الأضواء الساطعة، ملونة متقطعة .. ينهمك الأولاد والبنات في الرقص في مركز الحلقة .. نحيط بهم .. زملائهم يتمايلون بينما يصفقون، على إيقاع النغم الصاخِب .. يقوده صوت بالإنجليزية الاستعراضية لقائد جهاز البث الموسيقي .. يلوِّح بيده من مكانه المرتفع لضبط الإيقاع .. نظراته غير مريحة، خلف عدساته الضيقة ..

أقف بينهم في الحلقة الأخيرة حول الراقصين .. يتصببون عرقًا .. خلع الأولاد جاكتات السهرة السوداء .. يختلط ماكياج البنات وتتنوع العطور .. يتنافسن في إبراز انحناءات واستدارات حَبَتْهُن بها الطبيعة مؤخراً .. فى ثيات سهرة تنافس نجمات السينما .. تشي بفتنة يتلمسنهافي عيون المحيطين..

غير واضح دوري هنا .. بينهم .. إشراف على ماذا .. المَحتُ لهم في الإدارة .. قال كبيرهم :

– الأولاد يحبوك ، ويثقوا فيك ..

أحاول الإيضاح:

– لكنهم يهربون تلك الليلة من القيود ..

كمن أحكم قبضته على الفريسة:

– علشان كده .. أنت وزملاء ..

قاطعتهم .. لا يعجبني منطقهم:

– دَوْرِي معهم هنا .. داخل أسوار المبنى العريق .. في فصول الدراسة .. أما هناك في القاعة .. في الفندق الفخم بنجومه الخمس .. يوجد مشرفين .. ولهم أجسام خاصة – بودي جاردز – يملأون حياتنا الآن – مُتخصصين .. لم يُجدِ كلامي .. بقية متاعب المهنة ..

تدور بعينيها حول حلقة الراقصين .. أعرف أنها تبحث عن صديقتها المُقرَّبة .. لا تكفَّان عن الهمس طوال اليوم .. تقف صديقتها إلى جواري بعطرها هذا النفَّاذ وقد اختلط عرقها بالمكياج .. استقرت عيناها جهتنا .. أسرَعَتْ إليها إلى جواري ..

لستُ متأكداً هل لاحظتُ وجودي إلى جوارهما أم لا .. ما أن إقتربت منها، بأنفاسها المتقطعة، يرتفع صوتها، تريد أن تهمس .. لكن الجو صاخب، يبدو أن الأمر هام:

– مش عارفة "أتلم" على نفسي ..

أشارت لها جارتي لتهدأ .. تربت على ظهرها قائلة :

– شُفتكِ رايحة معاه آخر القاعة ..

مرتبكة الفراشة .. بعينين غير مُستقرتين ، تردعليها:

– قال لي إنَّهُ عارف مكان التواليت .. كنت عايزة أضبط المكياج.

تغامزتا بنظرة ماكِرة .. ضربتا كفًا بكف .. ضاحكتان .. قبضت جارتي على ساعدِها .. يرتفع صوتها في الصخب :

– وبعدين .. قولي لي ..

– هناك ظلام ..

قاطعتها جارتي :

– وسلم حلزوني صاعِد ..

تنظر فراشتنا إليها بدهشة :

– آه .. صحيح .. وفجأة .. لقيت نفسي في حضنه .. و ..

تقاربت رأساهما .. لم أتبين .. إرتفع صوت ضحكاتهما .. في
الموسيقى، ضاربتان كفًا بكف .. إحتضنت كلاً منهما الأخرى ..
ان

لا ... ي .. نظرتُ إلى تلك المنطقة المظلمة في نهاية القاعة ..

يتلك ... رفون - بأجسامهم المتينة في ملابس السهرة الأنيقة –
في المنطقة ... المضيئة بين حلقة الرقص وآخر القاعة .. المُظلِم ..

لاحت فراشة أخرى .. تطير إلى النور .. إلينا .. تبحث عن
صديقتها .. حاول الفتى الخارج من الظلام بعدها إشعال سيجارة ..
إعترضه واحد من أصحاب الأجسام المتينة .. ممنوع .. مرَّ بهما زوج
آخر ذاهبًا .. إلى التواليت ..

ساد هدوء مُفاجئ .. اقتحم تفكيري ... ي هذا المكان الغامض ..
آخر القاعة .. إلتفتُ إلى مركز الحلقة على تصاعد هتاف الأولاد
باسم زميل لهم .. أعرفه .. يفتتح الإذاعة الصباحية، بقراءة بصوتٍ
جميل .. لم أصَدِّق أنه هنا .. لم ألحظ وجوده .. ولا فتاتَه .. مُقَرَّبٌ
إليّ .. فتًى بريءٌ غض .. ذكي وسيم .. آخِر أحاديثنا . استنتَجتُ أن لن
يأتي .. حيرته تقلقني .. أخاف منهُ .. وعليه .. فهو غير مُنساق كلية
للزعيم مثل الباقين .. يغار الزعيم من حب بقية الفصل له، وإعجابهم
بصوته ..

كُنت ألحظ الزعيم يرمقه بعينيه الضيقتين المستريبتين دائمًا .. وعندما ينصت الزملاء له ، ويبدو إعجابهم .. تتحول إلى كراهية، وتبلغ مداها إذا ما لجأ الفتى إليّ .. يستشيرني ومرات كثيرة يشكو الزعيم إليّ :

– يمنعنا من الحديث مع البنات .. نجلس في منطقتين ..

طمأنته:

– واخد بالي .. يريد أن يجمعكم حوله .. هو وحده مقصدكم، وزعيمكم.. أراهُ مُغتاظًا من زملائكم على الحدود .. قُرب منطقة البنات..

ضحكنا .. يحمرّ وجهه .. فهو من جلوس هذه المنطقة .. تتماس مع منطقة فتاته .. لا يكفا عن الهمس برغم تركيزهما في الدرس .. هي أيضًا تلقى معارضة شرسة من زعيمة هناك ..

برشاقة .. اعتلي المسرح غير المرتفع .. يتصبب عرقًا ، ناولَتهُ الجاكت الأسود الثمين ومناديل ورقية ملونة .. يمسح عرقه بينما يتناول الميكروفون .. يشير إلى الفرقة الموسيقية .. " أول مرّة تحب يا قلبي " .. تنساب حالمة .. في هدوء القاعة .. التي كانت صاخبة .. تتمايل رؤوس الأولاد والبنات .. ليسوا هم من أراهم كل يوم يمتلكون كل هذه الرقة والحنو ..

اتَسَعَت الدائرة عندما هبط إلى منتصفها .. يغني .. إقتربوا .. يحيطون به وفتاته .. تقف أمامه .. تتأملُهُ .. مُتلاقية أعينهما طوال الوقت .. يغني لها .. لا يرى كلٌ منهما سوىَ الآخر، في هذا الزحام .. والأمان .. لا تنتهي الأغنية ولا النظرات .. لم يمانِع الموسقيون من الإعادة .. يتغامزون بأعين باسِمة ..

ضَجّ الأولاد فجأة بالتصفيق .. أفاقًا .. تقاربا .. تلاقت أيديهما للحظات .. إحمرَّت وجنتاهما .. إفترقا، كلٌ إلى مكانه فى حلقة الرقص .. يدورون مع الموسيقى الصاخبة .. قلت في نفسي :

– آه لو رآه الزعيم – وكان قد حذَّرَهم من هذا الحفل – سيَسعى لطردِهِ من الجنة .. لا يعلم أنه فيها .. دون حاجة إلى مباركته ..

تتدافع الخواطر في رأسي .. صدِامات متوالية .. الموروث .. والمنطوق .. والمسكوت عنه .. والعالم حارة ضيِّقة .. كيف يسلك هؤلاء الصِغار في هذه المتاهة .. وجدتني في طريقي إلى الحمَّام .. في آخِر القاعة .. إعترضني واحد من ضِخام الأجسام .. يُحدِّقُ فيّ بقسوة:

– علىَ فين يا أستاذ ..

اندهشتُ .. أو مأتُ إليه .. أشير إلى المنطقة المظلمة :

- إلى الحمّام ..

وضع يده الثقيلة على كتفي .. كأنما ليُديرَني إلى باب القاعة .. مُشيراً إليه :

- الحمّام خارج القاعة يا أستاذ ...

الكشك

إنتَـزَعـتُ ثقـة صـدِّيق .. يمكنني الآن الجلوس إلى جـواره – في ريحِـه – كمـا يقـول عندمـا ينسـجم لمقـال أو كـاريكاتـير .. ما يقـارب السنوات العشر، أدورحول الكشك .. أقرأ عناوين الصحف التي يعلّقها بمشابك الغسيل ..

أخشى صيـاحـه وعصـبـيتـه مع من يتـصفح ولا يشـتري .. عيناه ضيقتـان غائرتان .. قلقتـان، في وجـهه النحيف الأسمر من جنوب .. مـرة بجلبـاب وعمـامـة، ومـرة قـميص واسع خـارج بنطـالون .. الآن ألفَ وجـودي .. فـمنذ حـوالي العـامين نتبـادل التـحيـة .. لا يمانع في شـراء الصـحيـفة كل يوم .. هـي نصف السـاعة أو تـزيد، أصِل مبكرًا في أول حـافلة .. هربًا من زحـام المواصـلات .. ينتـهي التسكع والقراءة، بصلصلة السلسلة الغليظة التى تقفل البوابة الضخمة للمدرسة العتيقة .. إيذانًا بفتح أبو الخير لها .. لا يأبه لكثرة الأولاد خـارج المدرسـة .. يتـقاذفـون الكرات المهترئة المليئة بالثقـوب واللصقات بألوان متـنافرة في مخاطـر الطريق السريع .. فأهم حـاجة ألا يعبثوا بالعهدة .. لايفتح البوابة إلا في حضـور وكيل أو النـاظر، برغم أنه مِرارًا يبادلني التحية في الحافلة صباحًا ..

أتسلل داخلاً بين الأولاد، في زيهم الأزرق .. كالِح، رث .. وحقائب تطل من مزقاتها كُتب مهترئة .. يركضون باتجاه الملعب المليئ بالحفر.. يتدافعون بكراتِهم المكتسية بالتراب اللزج .. أتجنب إندفاعهم عبر الطرقة الضيقة الطويلة .. لن يتحمَّل حذائي وطأة أحدهم .. أو حتى حركة مفاجئة مني لتجنب صدام أو دَفْعَة .. أسمع له صوتًا، يُصِرّ ويئن مع الخطىَ منذ فترة ليست بالقصيرة .. فشلت كل الخطط عبر أوائل شهور مضت ..

قال الصحفي في المجلة أنه التقى في الأقاليم بمعلمين من نوع آخر .. قابل أحدهم، سمع عنه من الأهالي جيران المدرسة .. وَجَدَهُ في إجازة .. إلى أن يوفر حذاءً يخرج به إلى المدرسة ..

قرَّبَتْ مقالات الصحفي في المجلة ما بينى وبين صدِّيق .. ففي ذلك الصباح رَدَّ تحيتي مبتسماً بود :

– صباح الخير .. تعال، إتفضل يا أستاذ ..

إقتربت على استحياء .. مُستغرباً .. أفسَحَ لي مكانًا بجواره – في ريحه – على الحجر .. جلستُ :

– أشكرك يا صدِّيق .. هانت، خلاص أبو الخير هايفتح ..

استمر يضحك .. لم ألحظه يضحك من قبل .. ناولني المجلة .. يشير إلى صفحة بها كاريكاتير الشخص المفلس .. تحيطه مجموعة الفقراء :

- شوفت المقال ده .. إقرأه، وقول لي رأيك ..

أقلِّب الصفحات .. غريب وجريئ هذا الصحفي ، يسبح ضد التيار .. فالمجتمع أسقط كل فشله وإحباطاته على هذه الفئة .. يغتفر لمهندس أسقط مبنى وقتل سكانه .. ولطبيب نسي الفوط في بطن مريضه أو نقل له دمًا ملوثًا .. ولرجل أعمال فرّ بقرض حَسَنْ من قوت الشعب .. سرعان ما ينسي..

لكن هذه المعركة مستعرة الأوار .. دائمة .. يستوى فيها الصالح والطالح .. تعيشها في الشارع، والمرور .. وبين الجيران .. في كل مكان.. لا يُكلِّف أحدًا نفسه ليتجنب أن يصيب قومًا بجهالة ..

سألني صدِّيق مباشرة .. لم تفارقه الابتسامة :

- هو الصحفي ده يعرفك ..

بلا وعى .. نظرت إلىَ أسفل .. حذائي .. ثم بسرعة إليه ثانية .. ترى هل يعرف هو أيَضًا متاعبي مع الحذاء .. أجبته بسرعة :

- لأ طبعًا .. لكن ياما عندنا مظاليم ..

فوجئتُ برده :

- الناس في بلدنا إتجننت .. ماتأخذنيش .. مجتمع إستهلاكي .. كله بالساهل .. سفر وبترول وفلوس .. عِلم إيه وكُتُب إيه ..

أنظر إليه .. تغيرت نظراته .. عينان أخريان، عميقتان لمّاحتان .. أمسك بيدي بينما أهمّ بالقيام .. فقد سمعت صلصلة السلسلة :

– أنا متعلم يا أستاذ .. كنت في كلية التجارة .. لكن الظروف .. ما كملتش .. أعرف أمينٍ، سمعت كتير عنك .. ربنا يبارك لك .. باسمع العيال لما يتكلموا عليكم، وهم بياخدوا الحلويات .. بقيت عارفكم .. خلاص .. الكل بيهرب من الجَدّ...

نظرت إليه .. زمن طويل مضى بلا نظرة إمتنان .. أيام متشابهة .. تتواتر بجدول .. يؤدي لنهاية محتومة ..

قلت له وقد انتابني خجل :

– بارك الله فيك ..

ردَّ بسرعة، وما زال ممسكًا بيدي :

– عندي بقية مقالاته .. الصبح ها تلاقيها ..

لم أصبر .. مررتُ به في نهاية اليوم .. تركني مكانه بالكشك .. مضى مُسرعًا – بيته قريب خلف المدرسة – أحضَرَ المجلات ..

أصْبَحت لنا ندوة صباحية .. على الحجر .. قبل صلصلة السلسلة .. سرني إطلاعه وثقافته .. نتجاذب أطراف الحديث في الموضوعات كافة .. ونقرأ سويًا ..

تمرُّ بنا سيارة سوداء فارهة أحيانًا .. يرفع الرجل في المقعد الخلفي يده .. يردُّ صديق تحيته ويعود لحديثنا .. لمح إستغرابي عدة مرات .. لا يأتلِف الناس بسهولة، وصاحب وجهة نظر في تركيب المجتمع .. تبادلنا نظرات .. في إحدى المرّات تولى الإفصاح :

– ده راجل غني .. ساكن في الفِلل اللي الناحية التانية .. وابنه في المدرسة الخاصة اللي وراء الميدان .. أنت عارف .. هناك في كَشك .. بيتلم حواليه العيال الصيّاع .. لحَدّ الفجر ..

– ياه .. الكشك ده من زمان .. ومافيش فايدة .. شكاوي والحكومة .. ويفتح تاني

– المهم .. في يوم، وقت الظهر.. رايح بالعجلة بالمُرتجع من الجرايد .. لقيت العيال هناك نازلين ضرب فى واحد منهم .. لابس زَيَهُم .. صعب عليا .. شكلهم مش طبيعي .. عينيهم وحركاتهم .. وقفت بالعجلة في وسطهم .. خافوا .. تركوه وجروا .. وشه مليان خرابيش وهدومه مبهدلة .. جبته معايا هنا الكشك .. غسل وشه .. إتصلنا بالبيت .. جت العربية وفيها الأستاذ – شكرني وحلف لازم أزوره في بيته ..

لفتت الحكاية إنتباهي .. علقتُ :

– كويس يا صدِّيق .. معرفة الناس الكبار دول برضه مهمة .. تجهمّ :

- أنت عارف .. أنا ما يهمنيش .. هو إتصل بالتليفون .. راجل ابن بلد .. من السيدة أصلاً .. وربنا فتح عليه .. والواد مدوّخه .. عايز يردّ الجميل .. رُحت له يوم الجمعة .. صلّيت معاه .. شهم ومتردد يعمل معايا إيه .. أصرَّ على الغداء معه .. يجلس معي بجلبابه في حديقة الفيلا .. مستمتع بالحديث معي .. الأزمات والاقتصاد والسياسة .. زي ما بنتكلم هنا ساعات .. بس هو بيتكلم كتير .. زي ما يكون مش بيلاقي حد يكلمه .. وحده على طول .. قام وجاب معاه أطباق جاهزة من المطبخ " لأن المدام بره" زي ما قال ..

مرّ بنا الولد ابنه خارجًا .. رفع يده بتحية باردة .. نظراته لي غير مريحة .. يظهر أبوه عاقبه على حكاية الكشك وبلاويه ..

قال لي : البيه لسه جاي من رحلة .. بقية الفشل .. قال إيه الأستاذ بتاعهم يلمهم في نهاية كل شهر .. أسبوع في قرية سياحية .. مذاكرة ومراجعة واستجمام .. ومبلغ محترم..

الرجل مستغرب .. إفتكرتك لحظتها .. ما أعرفش ليه .. أكيد زميلك وأنت عارفه ..

ينظر إليّ صدِيق بمكر .. تبادلنا نظرات .. إنفجرنا ضاحكين .. أحملق فيه .. لم أتبين هل أضحك من تصورات إبداعات عقولنا .. أو حماقاتنا .. كباراً وصغار ..

من تاني

تَعَلَّقتْ بذراعه حتى استقرَّت اندفاعة المترو، بعد غلق الأبواب .. تتطلَّع في عينيه .. فيهما براءة وحرارة مُراهِق، حائرُ .. جسمه رياضي ضخم .. يبدو عليه المواظبة على تدريبات بناء الجسم .. كما يراهم في التليفزيون، إما موديل يرقص في أغنية أو إعلان، أو بودي جارد، يملأ حياتنا الآن ..

لا تتوقف عن الكلام .. يرتفع الصوت مرّة، فأتبينه في ضجيج المترو .. تهمس مرات .. تتحين الفرص كي تتعلَّق بذراعِه، تتشبث به حتى وحركة المترو مستقرة. هو قليل الكلام .. تومئ برأسها إلى الصندوق الكرتوني المزخرف، تلفه فيونكة حمراء ضخمة، تحمله بيدها الأخرى مستنداً إلى صدره .. عيناها مفعمتان بالفرح:

– فرحتُ قوي بالمانيكير .. عرفت تختار اللون اللي باحبه ..

مال برأسِه لأسفل قرب رأسها .. يبدو أنه يتعلثم، فوجهه يحمّر .. ضَحكَتْ، ارتفع صوتها :

– كُنت سألتني يامكار ..

إزداد تشبثها بذراعه .. راحت تسأله :

– كانت حفلة جميلة .. هه .. بس أنت كشّرت فجأة ..

تنظر إليه .. في عينيها حنان لا يخلو من المشاغبة والدهاء .. تحتار عيناه، يديرُهما في كل الاتجاهات .. إلا جهَتِها .. أحاول ألا أبدو مُتّطفلاً .. لكن يتملكني فضول .. تجاه من سيَخلِفوننا .. الأبناء .. في زمن "البنت والشات" والفضاءات المفتوحة .. تُعيد نبش وترتيب موروثنا، المسكوت عنه .. يزيدون من حيرتنا ..

سَمِعتُ صوته للمرة الأولى :

– مين الواد اللي جه وقف بيني وبينك واحنا ينطفئ الشمع ..

يزأر بالغيرة .. رغم غزوات الفيديو كليب، التفت لفتة خاطفة .. تبرُق عيناه بغضب ، نفس الأعين الغاضبة لأسلافِه من الجنوب ..

وهى ممسكة بذراعه .. تهمس، برقة مَن أحس بالذنب:

– ده أخو صاحبتي ..

يقاطِعها .. إحمرّ وجهه ، وعلا صوته:

– ويجيب لِكِ هدية غالية كده ليه ..

تقترب منه أكثر .. يزداد تشبثها بذراعه .. يكاد الصندوق أن يقع، يسنده بيده .. تنظر إليه برقة واستكانة .. أسمعها :

– المانيكير اللى أنت جبته لي عندي بالدنيا .. وها أرمي الهدية اللي مضايقاك، أوِّل ما أفتح صندوق الهدايا ..

قررت إلهائِه .. حواء .. أومأت إليه، تنظر إلى أسفل ويديها في وسطها .. خفضت صوتها ، زادته نعومة:

– مش تقول لي .. تنبهني .. شايف الجيبة اتلفتت إزاي .. أمسِك الصندوق لما أعدِلها..

أمسَكَهُ ، لف ذراعه حوله بحرص .. عينيه صوب أصابعها .. حول خصرها الدقيق، يقسم جسمها الممتلئ .. حيث ستدير الجيبة .. تفاصيل فائرة .. تناضل لتطل من فتحة تسربت أسفل الإيشارب الوردي .. يتابعها بشغف .. تتسع عيناه حيرةً .. تلمحُهُ .. تتصنع اللامبالاة، عيناها فرحتان .. تضبط الإيشارب بتكاسل .. حتى يشبع، ويزداد اضطرابه .. تشع عيناها سروراً خفياً .. لا ترى سواه في المترو ..

زالت غضبَة نظراته .. نَظرَتْ إليه فجأة، إحمرّ وجهه .. ضحكا بهدوء، تماسكت أكفهما .. مال عليها .. سمعته يداعبها :

– لفت من الرقص .. رقصِك جميل .. رايق ..

رَفعَت حاجبيها .. تُدخِل شعرها بإحكام تحت الإيشارب، تضبط الدبابيس .. سمعتها بصعوبة .. تهمس :

- هو ده رقص .. لسه .. هو أنت شفت حاجة..

لا أدري لِم نزلت خلفهما .. يمكنني أخذ المترو التالي - الأخير - المحطة شبه مُظلِمة وخالية آخِر الليلة المائلة للبرودة .. لم يصبر الفتى .. وضعا الصندوق على مِعقد من المقاعد الخالية .. وقفتُ بعيدًا في بقعة لا يصلها ضوء المصباح الواهن .. يضع يديه في وسطه .. بدأتْ هي في فك الفيونكة الحمراء بعصبية .. تناولت عُلبة سوداء .. أكبر من حجم الكف قليلاً .. تبدو ثمنية فعلاً، لامعة.. بَرَق اسمها بلون فضي .. سارت ممسكة بها في كفها عدة خطوات، حتى حافة المجرى العميق للمترو المقابل .. طوَّحت بها ..

كان يقف تحت الشجرة في طرف المحطة .. هرَعَت إليه .. في الضوء الواهن .. ارتمت في حضنه .. عادا ليأخذا الصندوق، يلفانه بالشريط الأحمر .. يتهامسان .. يمران بي .. سمعتها تضحك بدلال، تجذِب يده :

- ارتحت كده .. ياللا اضحك بقى..

يبتسم .. تنطق عيناه فرحًا بينما يعتصر يدها تحت إبطه، ويسرعان بالخروج من المحطة ..

انتظر المترو التالى - الأخير - يتأخر .. ويكون مزدَحمًا .. جلست ، أشعر بسرور غامر .. أهاجا ذكريات بَعُدَت.. إختارَتهُ،

فضَّلتهُ صراحة .. لا ترى سواهُ في دنياها .. طال الانتظار، قُمت .. سِرتُ قليلا.. وجدتني على حافة هذا المجرى المقابل، مهجور .. لا يمر فيه المترو .. تملأه نباتات بين نشع المياه .. تلمع العلبة هناك مع رقرقة الماء ..

عُدتُ متأخراً .. تنتظرني في الردهة بعد أن نام الأولاد .. ما أن فتحتُ الباب، هبَّت مقتربة مني .. تبتسم فرحة :

- اتأخّرت قوي .. ليه .. ياه - تقبض على كفي بما فيه - أخيراً افتكَرت .. والله زمان (تتسلل يدها حول خصري .. تسري حرارتها أسرع إلى جسدي، لا زالت تفاصيلها الفائرة تُلهبني - أحسستُها كما حدث أول مرة) ده عِطر غالي قوي - تتطلَّع إليّ، حلَّت الدهشة محل النظرة الفردوسية - هو أنت قبضت النهارده ..

هولا هوب

هممتُ بمغادرة الفِناء .. سئِمتَ عرض فتيات الهولا هوب المُمِل .. أمسكَتْ بيدي ، تبادلنا نظرات .. تتفاهم أعيُننا منذ فترة ليست بالطويلة، جلستُ إلى جوارها ثانية. جميلة الأطواق من الخيزران، مجدولة بشرائط ملونة مضفورة بورود حمراء .. يتبادلن تحريكها بتكاسل أعلى رؤوسهن، ثم يتمايلن يمينًا ويسارا خارج اللحن المصاحِب .. وخارج العرض .. باديًا خوفهن من أجسادهن في نظراتهن لجمهور زميلاتهن والأهل .. هذا ما بقي من أطواق الهولاهوب .. مجرد التبادل والتناقل، مع التمايل ..

طفت على ذاكرتي تلك الحكاية الغامضة، في صبانا .. جذوة الاشتراكية .. مصطلحاتِ تغزونا .. مثل التنمية، النظام والعمل .. المواطن تِرس في آلة ضخمة، تصلح به، ويصلُح بها .. وذلك المسؤول الكبير المهموم بقضايانا.. عبر كل وسائل الإعلام ، ومؤتمرات المحافظات .. يبدو عليه الصدق من خلال حماسته ومعاونيه .. تولوا نشر ثقافة الهولاهوب.

الطوق بسيط، خيزران أو بلاستيك.. رخيص الثمن، منهُ كبير للكبار، وصغير لمن هم دون العاشرةِ .. لا يحدّ التدريب به زمان أو مكان .. لكن ما يمنحه من نشاط وحيوية ولكل الأعمار، لا يُصَدَّق .. والنموذج واضح في شعوب تسبق الزمن .. ملأ تدريب طوق الهولاهوب برامج المدارس والاستعراضات .. حماسة ودقة المعلمين وقتها مُذهل .. نحضر مبكرًا ، وبسرعة نوزع الأطواق ، يعرف كل منا طوقه .. يتفنن في العناية به وتلوينه بالشرائط.. يبقون معنا بعد اليوم الدراسي .. أجدْنا اللعب به .. بنين وبنات .. تشتعل المنافسات والمكافآت بين الفصول والمدارس والعروض الرسمية في المناسبات .. نستمتع به .. بدا على أجسامنا وعقولنا نشاط ويقظة لا ألحظها الآن .. لا أذكر متى أفقنا على اتهام هذا الطوق بالفسق .. أخافنا منه الأهل بادعاءات كثيرة .. لم نفهم .. تخلصوا من الأطواق .. كنا نلعب به خلسة .. اختفى الرجل ومعاونوه .. تجاهلها المعلمون ..

قلت لها .. أرفع صوتي لتسمعني في صخب الموسيقى :

– هل أطواق الهولاهوب مخلوقة لهذه البلاهة .. لا نستطيع إعداد فتاة واحدة لأولمبياد ..

ترفع صوتها .. أسمعها بصعوبة في الضجيج .. أرقب شفتيها:

– عارفة أنها بلاهة .. لكن أنا سأريك كيف يكون الهولاهوب..

رفعَت حاجبًا مع ابتسامتها المُتوعِّدة ..

ذلك الصباح البعيد .. شتوي باكِر .. الغرفة مليئة بالأطواق، خلف المبنى الرئيسي .. إقتادتني من يدي، قبل طابور الصباح .. أغلقْتُ الباب .. يدور الطوق حول خِصرها الدقيق .. له حفيف في هدوء الغرفة .. يطرَب بينما يضرب الهواء حول جسمها المنتشي .. فتتراقص أطراف الجيب الرمادي القصير ذي الكسرات على الجوارب السوداء الطويلة ، متناغِمة مع تمايل رأسها بينما تنظر إليّ .. مبهوراً .. تدور به في أنحاء الغرفة الفسيحة .. تطوح برأسِها لأعلى لترفع شعرها الأسود المنسدل على عينيها الباسِمتين .. سارحتين .. تسمّرتُ في مكاني .. تبتسم شفتاها القرمزيتان وقد احمرّت وجنتاها الخمريتان .. تلمعان بطبقة رقيقة من العرق .. أسمع أنفاسها .. لا تتوقف عن الدوران .. تحرك ذراعيها حول الطوق الدائر، راسمة دوائر أخرى .. إقتربتُ منها، لا أستطيع إجتياز محيط دورانه .. تُسرع حتى لا أقترب .. تضحك .. يرتفع صوت ضحكاتها .. كلما حاولت الاقتراب أكثر.. أرجوها :

– كفى .. تَعِبتِ ، وأتعبتِني .. أمامِك يوم عمل .. وسيبحثون عنا .. أسمع صفارة جمع الطابور ..

تردُّ .. بأنفاس متقطِعة :

– أنا مبسوطة .. سوف أنتهي عندما يقع .. مش أنت قلتَ أنك تُجيد لعبة الهولاهوب .. .

- كنت أعرف زمان .. لكن أخافونا منه .. للآن لا أعرف لماذا .. صَعُب عليهم أن نكون سعداء وفي رشاقة باقي الناس .. المصحصحين ..

لم تتوقف عن اللعب والدوران بالطوق .. عَلَّمَتهُ لأولادنا جميعًا بعد ذلك .. صبيان وبنات .. في المنزل، كنا نستمتع بعمل المسابقات لهم .. حتى وهم في الجامعة .. لا تكُف عن التباري معهم ، في استراحات المذاكرة .. مع الشاي وكيكة الشيكولاتة .. تفرُّ الدموع من عينيّ كلما أطَلَّ عليّ طوقها من خلف الدولاب في غرفتنا .. بلونه الأحمر .. يكسوه التراب .. هو الأقدم هنا، لا أقوى على تنظيفه .. يعيدني إلى تلك الغرفة المليئة بالأطواق خلف المبنى الرئيسي ..

أصَرَّت تلك الليلة أن تبعث فينا السرور .. أعلم كم هي في حالة بالغة من الإعياء في مرضها، والعلاج المُرهِق .. سمعت حفيف قدِميها .. متباطئاً .. قادِمة من فراشنا إلى الردهة حيث نجلس .. عزّ عليها وجومنا الذي اعتدناه .. صوتها يحاول إخفاء الوهن بالضحك :

- يا للا يا ولاد .. المسابقة ..

يتبادلون النظرات .. قاموا ، لا يتضاحكون .. ينظرون إليها كصِغار القطة ..

وقع الطوق .. لم يدر .. كادت أن تقع .. أمسكتها .. احتضنتها، أو ما بقى منها .. بكت في هدوء عندما انزلق غطاء رأسها .. فلا شعر تحته .. أعدته بسرعة .. أتلفت حولي ، لا تُحِب أن يروها .. تنظر إليّ مُرتاعة ، تشبثتُ بها أكثر .. هبوا يداعبونها .. أهمس في أذنها بإلحاح يغلب على انسياب دموعها .. وقد جف حلقي :

- لا زلتِ الأجمل .. ستزول الغُمة ، وستعودين إليّ .. إلينا .. وإلى الطوق .. تحبو حفيدتنا بخطواتها الأولى مع الهولاهوب.. بطوق جديد أحضرته لها .. هو أيضًا صغير ..

يوم السنديان

تتقطع أنفاسي، أتصبب عرقًا .. لكن الحمد لله، دلفت إلى العربة قبل أن تُغلق الأبواب، لعلي ألحق بمكتب المعاشات ..

فعلاً، لم أعد أتحمل هذا المجهود المفاجئ .. العربة ليست مزدحمة .. غريبة .. همهمات تنبعث من أطراف العربة .. سنديانتان ضخمتان، سوداوان .. تتوسطان ساحة العربة .. تسددان إليّ أربعة أعين .. بكل حدة، لا أعرف من أين يأتي فحيح مصاحبًا لإصبع أسود يهدد بسخرية لا تخلو من وقاحة:

– ستدفع مخالفة .. إيه جابك هنا .. في الحرمات ..

تلفتُ حولي .. سنوات كثيرة، لم أحصها، أذهب للعمل سيرًا على الأقدام، فهو بالجوار .. خلالها بدأ هذا المترو تحت الأرض .. تأتي انقلاباتنا دائمًا من تحت الأرض .. تنمو في الظلام .. تنفر من وضوح النهار ..

أعيد اكتشافنا .. اتضح أننا جنسان، بينهما شيطان .. يقولون إنه ينشط في هذا المترو .. تحت الأرض .. إما أن يموت الشيطان، أو يُفصَل الجنسان .. لكن ماذا عن سنوات خلت .. كان الشيطان في غفلة ..

التصـقتُ بالبـاب، لم أجـرؤ على الإيضـاح .. سيـتـضـاعف الذنب، النظرات تخلو من أي تسامح .. تصورات فضيحة وأنا في هذا السن..

فُتح الباب في المحطة التالية .. تبادلنا نظرات بلا معنى .. لم هما ضخمتان هكذا .. قفزت..

فى العربة التـالية، صمت مريح .. فقط صـوت حركة المترو على القضبان .. الكل يقرأون جلوساً وبعض الوقوف .. إبتهجت في نفسي .. أخيراً تنبـهنا لفضيلة القراءة .. تفحصت القريبين، نوعان من الكتب .. كثيرة بحواشي مُذهبة وأغلفة ثمينة .. وقليلة خشنة المظهر، بلا حواشي ولا تذهيب .. لكن الكل يـقـرأ .. إرتكنت بظـهـري إلى جـدار سـاحـة العربة .. قام رجل لم يرفع عينيـه عن كتابه الصغير في يده، تشبث بالعارضة فوقه، ليُجلس المرأة التى إختارت الوقوف أمامِه .. وضعت حقيبتها الكبيرة على الأرض، بين قدميها بينما تعدل من وضع إبنها في حِجرها .. نظرة عينيها تدل على انتصار .. تنفع الحيلة .. لن تُجدي في العربة الأخرى .. أنظر في سـاعتي، هل سـأنتـهي من هذه الورقة اليوم.. متـعـلِّق بها صـرف المعـاش، ومصـاريف الأولاد والبيت.. سأعود إلى مكتب هذا الرجل ثانية .. غاصًا بالناس .. له سكرتيرتان .. كأنهم نفس السنديانتين، والأصبع الأسود ممتد من فروعها، يصاحبه الصوت الذي لا يخلو من وقاحة .. يغطي على صوت مذياع لا يتوقف وبلا موسيقي:

- إذا لم تقفوا صفًا، مع الآذان سنذهب للصلاة .. وتشرّفونا بُكرة .. عجيب أمر هذا الرجل .. لا ينطق أبدًا، ولا يتحرك من ركن الحجرة .. فقط يختم ما يُقدَّم له، لا أنسىَ في مرة سابقة ، اقترحتُ على صاحبة الصوت، وبأدب شديد، كتابة أرقام على الطلبات .. فيعرف كل مِنَّا دوره بدلاً من الزحام، فيجلس وينتظر ..

استدارت إليّ .. سددتهما نحوي .. وذات الأصبع الأسود، والصوت الذي لا يخلو من وقاحة، ويتصاعد :

- مين الفصيح ده .. هو أنت .. مش أنت اللي قلت ما حدش بيسمع الراديو .. حرام .. إقفلوه ، طيب .. أنت آخر طلب (قلبت أوراق الطلبات في يدها) .. ولو لحِقنا كمان - تزداد نظراتها حِدة - إتفضل أقعد وارتاح .. من يومها، التزمت الصمت .. لن تفيد الشكوى .. الأصبع الأسود مُسَدّد، الاتهام جاهز .. فلا مجال لحُسن النوايا ..

خرجت من المحطة مسرعًا .. تمهلت على الدرج، الطريق معطل .. كردون جنود الأمن المركزي يمنع شبان من النزول إلى المحطة .. زحام .. مظاهرة ولا فتات وهتافات .. لم أتبين الأمر أولاً .. يطالبون بإحراق كتاب .. لم أتصوَّر أن الأمر هام هكذا..

قال الرجل السمين الأنيق في التليفزيون أمس، بصوته الجهورى وخطابيته المُنَمّقة الفخمة :

- يجب منع هذا الكتاب .. لم أقرؤه .. لا أقرأ مثل هذه التُرّهات .. لكن نبهتني سكرتاريتي إلى خطورته على فِكر الشباب ..

كان مُتحمسًا .. أتساءَل " كل هؤلاء قرأوا الكتاب، ناقشوه .. ثم تظاهروا ضده .. لم أر أحدًا في المترو - خلال أسبوعين قضيتها ذهابًا وإيابًا عدة مرات في اليوم الواحد - يقرأ أي كتاب آخر"

إنتظرت مرور الحشود من الجنسين .. أصوات هادِرة، في أهازيج مُنظمة .. سيفلت منّي الوقت .. يجب إنهاء الطلب وإلا سيمر شهر آخر .. والليلة بالذات سيأتي عريس ابنتي للقائنا للمرة الأولي .. بصحبة أهله، أمه وخالته وخاله ، عقب صلاة المغرب .. يجب أن أهدأ لأبدو سعيدًا .. لحقت بهما في المعاشات قبل انتهاء الفترة الصباحية .. سلمتها الطلب وعينىّ إلى الأرض خضوعًا .. سأستلمه مهمورًا بخاتم النسر مع بداية الفترة الثانية بعد العصر .. وقفت في نافذة المبني بين أصحاب الطلبات .. نتابع المظاهرة .. لا حديث للناس إلا عن الكتاب :

- كيف يكتب هذا الرجل هكذا ..

- يجب أن يُقدَّم للمحاكمة ..

تساءَل أحدهم :

- ما اسم هذا الكتاب؟ ..

تبادلوا جميعًا النظرات .. أضاف أحدهم :

- يبدو أن الكاتب ليس من بلدنا ..

جلست بينهم صامتًا .. قلت في نفسي:

- سيتضاعف ثمن الكتاب، ويصبح الرجل نجمًا.. سلو بلدنا ..
النداء باسمي، هببت مُسرعًا .. فرحت برغم مرور أكثر من ساعتين.. إنتزعت الورقة بدون نظرات .. تسللت من المنفذ المزدحم الوحيد المسموح به لمترو تحت الأرض .. أقفلت بقية المنافذ أمام المتظاهرين ..

تأكدتُ من العربة .. قفزت إليها بما بقي فيّ من نَفَّس .. ما زالوا يقرأون .. لكن لا يتظاهرون .. قطعت الطريق إلى المنزل مُسرعًا .. غُرفة الصالون مُضيئة .. حضروا مبكرين .. الولد مُتعلق بابنتي .. طبعًا سأوافق بعد اصطناع بعض العقبات .. أحاول تذكرُّها مسلسلة ..

أخرجُ المفتاح من الباب، أرَحِب بهم :

- مساء الخير ..

تسمّرتُ .. سنديانتان سوداوان، هبتا واقفتين .. أبعدتا أفرعهما السوداء للخلف .. تسددان إليَّ أربعة أعين، بلا حِدة ، وبصوت رقيق:

- أهلاً وسهلاً..

إجازة رسمية

صَلْعَته الكُمثريّة، تَضيق من أسفل .. عند فمِه الواسع ذى الشارب الضيق الهتلري، وأسفله رابطة عنق خانقة، سوداء، كحبلٍ مجدول .. وحده دائمًا .. بجسده النحيل ذي البذلة الداكنة، بلون غير واضح .. يداه معقودتان خلف ظهره .. يقطع الفناء الخلفي ذهابا وجيئة، في الممر بين أكوام الأدراج المُهشَّمة .. مُتَّمتَمًا .. لم أكن لأتَبيَّن .. هل هو شعِر .. أم أدعية .. طالتني عصاه ذات مرة يثيرُهُ هؤلاء الأشقياء بضَحكاَتِهم الساخِرة .. فيسّبهم ملوِّحًا بعصاه الغليظة .. يهرولون خروجًا من الفصل .. يهرَع خلفهم .. والمشهَد متكرر..

في ذلك الفناء الضيَّق المهجور .. ذهبت للقائه موَضِّحًا :

– أنا زميل جديد لكُم ..

حدَّق فيّ .. أكمَلَ سَعيَه :

– شَكلك تشبهُهم، ملابسك ضيقة .. تلاقيك جاهِل مثلهم..

جلس على الدكة الخشبية المتهالِكة في مدخل الفناء يُعلَق عليها عصاه .. بجانبِهِ حقيبته الجلدية العتيقة .. ظهره إليّ .. أخرج منديل قماش، يميل لونه للصُفرة .. يجفف عَرَقه .. انتهى اللقاء ..

تلمّست من هؤلاء العفاريت - عَقِب مباراة كرة لعبناها سويا - ما سِرّ هذه العلاقة .. يُجمِعون :

- لا يأبه لفَهمِنا .. يسخر منّا .. لَغَتُهَ صَعبة علينا ..

مُحاولاً التهدِئة والإيضاح:

- يا أولاد .. هذه طبيعة الشِعر القديم .. لابد وَأن تصبروا .. وتحاولوا .. لا فائدة ، يتبادلون النكات .. وتَذكر المقالِب .. إذ يتبادلون صَبَّ الماء عليه من الطابق العلوي، أثناء سعيه اليومي في الفناء الخلفي.. وهذا هو سبب ارتفاع صوته المُفاجئ يسبِّهم وأهلهم .. فيزداد ضحكهم ..

ترى .. من البادئ .. ومن المُحِق..

في ذلك الصباح .. طابور العَلَم غاية في الانضباط .. يقف الأولاد في ثبات .. الأقصَر في الأمام .. يُلقي أحدُهم النشرة الصباحية .. نتحرّك نحن المدرسون خلفهم بهدوء .. تَسْري همهمات في مؤخِرة الطابور.. حيث يقف منفرداً .. إقتربت بهدوء لأسكِتهم .. أسمع همسهم :

- هل حقًا غدًا إجازة رسمية ..

يرد آخر :

- يا أخي صَدَّقني .. سيعلنون في الإذاعة الآن ..

اهتمَ الجمع .. ينظرون إلى بعضِهم البعض .. لَمحت غمزات .. أستعرض الأيام في رأسي .. ترى لماذا .. يتكرر الحديث مع الهمهمة .. آمُرُهم بالصمت .. يسري الحديث إلى الطابور المجاور .. يسمَعُهُ.. أراه يقاوم رغبته في التساؤل .. يحاول الابتعاد .. لكنه يقترب .. لا يُحِب أن يحادثهم .. فجأة .. اقترب من أضخمهم .. رافِعًا رأسه إليه:

- بُكرة أجازة ليه يابني ..

مال عليه الولد الضخم صاحب الصوت الأجش .. وبسرعة كمَن تصيَّده :

- علشان عيد ميلاد شكوكو يا أستاذ ..

عفريت الكرة

ياللعكننة .. ارتفعت الكُرة، وقعت في شُرفة أم حميدو.. في أوّل المباراة .. جرينا للاختباء .. لا يصمد أحد لغضبها، وسبابها .. نترقب صوتها، يعقبه جردل المياه .. طال الانتظار .. أطلّت رؤوسنا من أبواب المنازل المجاورة وناصية الشارع .. تَشَجّع الولد حسن .. صاح:

– تعالوا .. تعالوا ، افتكرت .. ده الزار بتاعها النهادره .. غيَّرَت الميعاد .. وأمى رايحة .. تلاقيها مش فاضية ..

تبادلنا النظرات .. ستحضر أم شوق .. نرتاع لمرآها .. نحيفة كالبوصة، طويلة.. تَلِفّ شعرها كالصرة فوق رأسها بمنديل أسود .. العُقدة فوق رقبتها المعروقة .. لا ترتدي إلا السواد .. صوتها خارج الزار .. خفيض، منبعث من كهف سحيق .. يبعث فينا الخوف .. رغم دعائها لنا .. تصحبها نسوة، قصيرات، بدينات .. متشِحات بالسواد .. يحملن أكياس منتفخة، كبيرة.. تُزيدنا رُعبًا..

على رأسهن .. عم علي .. دقيق الجسم ، يخلو فمه من الأسنان .. يكبس شعره الطويل الأشعث في طاقية مليئة بالخروق .. دائمًا بجلبابه الأزرق، والبقعة الكبيرة خلفه مكان الجلوس .. أطراف سرواله الأبيض تظهر أسفله .. يخلع الجلباب وقتما يحتدم الزار .. ويعلو صوته في فواصِل .. مع رنات صاجاته الكبيرة .. يردد خلف أم شوق :

واتمايلي يا غُصن البان   اتهَزّي وخرَّجي الجان

لا تنم عيناه الحمراوان وترنحه عن نشاطه المحموم في الحلْبة .. وسط النسوة .. وقيادته لهن في الحركة والاهتزاز .. وفقْ الأهازيج الغامضة لأم شوق التي يرتفع بها صوتها :

شيخ محضر يا شيخ محضر   واللي عليها عفريت تحضر

وسرعان ما تطلِق فجأة صوت مُخيف .. يسمعه الجميع في الشارع.

تجاورنا على رصيف الناصية .. أهمهم:

– يعني مش ها نجيب الكْرة..

يرد حسن مُحركًا إبهامه ، يهز رأسه مُتوَعِداً:

– أنت عارف لو طلع لها حد دلوقت .. غير أنها كمان بتستعد.. تلاقي أم شوق جاية بالفرقة .. لازم يلحقوا الغداء بعد صلاة

الظهر .. قبل الشغل .. انفعل الولد رجب .. نعرف أن أم حميدو خالته الكبرى :

– أنا عارف إيه العبَط اللي بتعمله خالتي ده .. تدبح لهم البط اللي بتزَغّطه طول السنة .. وتطبخ، وتؤكِلهم .. وكمان تدفع فلوس .. علشان عفريت عندها في البيت .. جوزها وأولادها بيخروجوا، يسيبوا لها البيت .. أمي بتقول أن عليها عفريت خواجة .. لابسها ..

ننظر إليه بدهشة، لا تخلو من خوف .. يبدو أنه يعرف الكثير، سألناه:

– طيب .. وبقية الستات ، دول كتير..

أجاب ساخراً :

– طبعًا كل واحدة من صاحِباتِها .. عليها عفريت .. تعزِمها .. تيجي تتنطط في وسطهم .. حوالين عم عليٌّ ، وأم شوق تغني وتحرق البخور .. شوفتوا دخان قد إيه بيخرج من الشباك .. زي ما يكون عندهم حريقة .. دي مخاصمة أمي علشان ما بتحبش الزار .. بتقول لها " تعالي يا بت .. ها تفوقي" (يتمايل بخصره محركًا يديه يقلدها) .. نضحك ..

لا أنسى .. يوم أن ارتعت من صخب الطبول، والأصوات الغامضة .. مرّ أكثر من عامين تسللت صعوداً إلى شقتها في الطابق الأول .. في زحام الصاعِدات .. أم حميدو محشورة في بنطلون ضيق، بجسمها الضخم .. نصفها العلوي يكاد أن يكون مكشوفًا .. تضع على رأسها برنيطة (خوجاتي) .. بفمِها بايب .. يحيطه مكياج أحمر .. يشبه الدماء .. ترطن وسط ضجيج الطبول والصاجات والغناء .. بألفاظ غير مفهومة .. بقية النسوة .. في ملابس خفيفة أيضًا .. مختلفة .. والكل يدورون في الحلقة حول عم عليّ .. تزداد سخونة الدوران، ويتسارَع الإيقاع .. لا يبالي أحد بمن تسقط .. يسحبها عليّ ومساعدِات أم شوق خارج الحلقة أثناء ترديدهن .. تصمت الإيقاعات فجأة، يرتمين على الأرض .. تصدر عنهن أصوات .. كم خفت يومها .. قفزت الدرج قفزًا .. جريت في الشارع مرتاعًا إلى أمي .. لم أتكلم .. كانت تراني من شُرفتنا .. لا أنسى نظرتها.. تخفي ابتسامة:

- ليه رُحت هناك ..

لم أردّ.. قبضت على كتِفيّ .. تحدِق في عينيّ:

- أنا قلت لك تلعب مع أولادهم بس .. لكن لا تذهب عندهم ..

تملأ التساؤلات رأسي .. أخاف أم شوق إذا ما صادفتها في الشارع .. أهرع إلى الجهة الأخرى .. لا يأخذ باعة السوق

منها مقابل .. كما يؤكد الولد رجب .. يحكى أيضًا عن مسكنها أعلى ذلك المبنى المهجور في نهاية الشارع .. أعلاه عش الحدأة.. والبومة التي نسمعها ليلاً .. يقولون أنها تطعمها .. وليس من قبيل الصدفة أن مصابيح الشارع هناك، دائمًا محترقة..

يصطحبني أبي أحيانًا إلى المقهى الكبير على أطراف الحي.. نجلس مع أصحابه .. خلفنا غُرفة ، مغلقة دائمًا يدخلها الجرسون بسرعة، حاملاً زجاجات .. داكنة الإخضرار .. يغلق الباب خلفه بسرعة.. لم ألحظ خروج أحدٍ منها أبدًا ونحن جلوس ..

فى تلك الليلة .. فُتِح الباب، خرج بجسمه الدقيق.. لكن بدون الجلباب الأزرق القذر.. ولا الطاقية المليئة بالثقوب .. بل بنطلون أسود وقميص مزركش بألوان باهتة .. مكومًا شعره فى جديلة.. مصحوبًا بصياح من الداخل، وسباب قذر .. هرع الجرسون لغلق الباب .. تركه يكاد أن يقع .. سارعت بإمساكه .. نظر إليَّ . قلت له بتلقائية:

– إيه ياعم عليَّ .. تطرد العفاريت بالنهار أنت وأم شوق .. وتبحث عنها هنا بالليل..

ضج الحضور بالضحك .. اندهش أبي .. يضحك عم علي بمكر، يبدو عليه التعب، يعلق بصوت خافت، متأثرة حروفه بنقص الأسنان :

– ده أكل عيش يا بني .. هو فيه عفريت إلا بني آدم.. زي أنت ما طلعت لي كده ..

تركنا .. غادر مُترنِحًا يتساند على المقاعدِ خارجًا ..

كيف سنُحضِر الكُرة .. لنذهب ونلعب في مكان آخر .. طال بنا الجلوس .. أذّن للظهر .. وصل الموكب .. قفز عم علي من العربة أولاً.. يتنصل من مساعدتهن على النزول من العربة، بأجسامهن الثقيلة، وأحمالهن .. أو حتى الإمساك بالحمار .. يتوالى سبابهن له .. يصيح:

– رايح أشتري دخان .. ليه طولة اللسان ..

مرَّ أمامنا .. لمعت الفكرة في رأسي .. سرت وراءه .. وسط صمت ودهشة الأولاد .. ناديته بهدوء :

– ياعم عليّ .. يا عم عليّ .. فاكرني ..

نظر إليَّ .. عيناه ضيقتان ، ماكِرتان:

– لأ .. انت مين .. وعايز إيه ..

رفعت صوتي قليلاً :

– فاكر يوم القهوة .. ليلة العيد ..

قاطعَني .. يتلفت حوله .. اقترب مني .. يشير إليَّ، يسكتني .. يخفض صوته :

– إفتكرتك .. أنت العفريت .. عايز إيه يا سي عفريت ..

بسرعة قلت له حكاية الكرة .. في الشُرفة .. اشترط عليَّ :

– ماتقولش لأصحابك حكاية القهوة دي .. وأنا ها أجيب لك الكُرة..

عُدت ، جلست بينهم .. نُكمِل حديثنا .. ينظرون إليَّ بريبة .. لم أبالِ .. عادَ ماراً أمامنا، يشعِل سيجارته .. متَجهًا إلى منزل أم حميدو .. سقطت الكُرة على رؤوسنا .. صِحنا فرحًا .. قاموا، ينظرون إليّ:

– رماها لنا عفريت ..

مَوكِـــب...

استيقظت فزعًا على هزيم الطبول .. نظَرتُ بغضب إلى الجهاز الذى اخترعه جارى (عليْ بن الخازن) .. لعنته فى السر والعلن .. .. يسهر معى .. يعرض عليٌ مخترعاته، ونتحدث فى العلوم الحديثة.. أقنعنى ليلة أمس :

– هذا الجهاز مزود بسلكٍ ملتوٍ (زنبرك) .. تُديرهُ ، يختزن طاقة مستمدة من الجاذبية .. يُطلِقها فى الوقت الذي يحدده هذا المسمار (أشار إليه) .. فيدق هذا الجرس، يوقظ النائم ..

طوال الليلة السابقة يشرح لي طريقة عمله .. لا انطلقت الطاقة، ولا دق الجرس.. يا للحظ السئ .. لن أستطيع عبور الطريق إلى النهر حتى الظهيرة، الحرس التركي من الجلبان أقفل الطريق .. سيمر الخليفة ذهابا .. وإيابا .. لا لشئ، فكل أعماله تدار من قصوره المنيعة، المحاطة بالأسوار فى تلك الإقطاعية على النهر .. لكن .. اليوم ليس غرة رمضان ولا هو أحد الأعياد ..

دعوت فى سري وأنا أتوضأ أن تنتهى هذه المراسم مبكرًا قليلاً .. التقطت بضع تمرات وخرجت مُزمِعًا الانتظار مع الحشد لْعَلْي أتسلىّ بالفُرْجَة، فأنسَى ما ينتظرني فى المدرسة .. افتتحها أبو موسى الطوسي – عين الأعيان – مجاورة لإقطاعية الخليفة. رحت أتأمل الفارس التركي الجلب المُكَلَّف بهذا الجزء من الطريق .. قصير .. متين البناء .. ذو شوارب كثة .. ولحية يُطِلّ بعضها تحت خوذة ذهبية لامعة.. يضع على كتفيه شبكة معدنية دقيقة، على ملابسه المزركشة.. يمتطى جوادًا ضخمًا كثير الحركة .. يصهل فيخيف النظارة فيتراجعون للخلف مع سبابه بلغة عربية مكسرة. ترى من ذا الذى يربت على كتفي فى هذا الصباح النَكِد .. إنه عَليٌّ .. استيقظ وخرج أيضًا فى هذا الصباح الحار .. مُغتاظًا منه :

– مُرحبًا بالمخترع الجبار .. سَتُضَيِّع عليّ أجْر اليوم باختراعِك الخَرِب .. ماذا سأفعل مع هذا البخيل ابن الطوسى ..

دائمًا يُبَسِّط الأمور:

– يعنى يا أخي لو كنت صحيت فى الفجر، كنت ستصل للنهر لتعبره إلى المدرسة .. فى هذه المناسبات، تَعْلَم .. يُقفَلَ الطريق منذ ما بعد صلاة الفجر ..

همست متلفتا حولي:

– أية مناسبات .. أنا لو أعرف هو صاحبنا رايح فين . كل ما تشتهي الأنفس عنده فى الإقطاعية المهولة..

مال على أذني :

– يقولون إنه يلقى نظرة على بعض الأماكن فى السوق الكبير – بطرفٍ خفي .. لا تسألني كيف عَرَفت ..

ينظر إليَّ بريبة .. نزدرد التمر معًا .. وننتظر ..

يتقدم النهار مُتباطِئًا .. ترتفع الشمس إلى قبة السماء تشارك هى أيضًا فى تعذيبنا .. يتزايد الحشد الضاغط .. تتمادى شراسة الجلب التركى وسِباب النسوة له .. فجأة . ملأ الأسماع إصطكاك سنابك خيول كثيرة ذات صهيل جميل مُمَيَّز، ولاحت فى الأفق كوكبة من الفرسان ذوي ملابس مزركشة وخوذات ذهبية لامعة، حرابهم الرأسية لامعة تحمل رايات سوداء .. يتهامس الجمع:

– إنه حرس الخليفة ..

مع آخر صف للفرسان .. لاحت عمامة سوداد مُرَصَّعَة بجواهر تخطف الأبصار على رأس مُقنَّع بقناع أسوَد يستوي على جسم دقيق مُلفَّع بعباءة حريرية سوداء مُطَرَّزَة بخيوط ذهبية دقيقة ذات نقوش فارسية .. يمتطي حصانًا عربيًا أسودًا لعوبًا يتمايل

فى الموكب برشاقة تقترب من الرقص .. فاحت فى الجو روائح لعطور جميلة ذات أريج نادر .. " هذه روائح الجنة .. " تعلّق النسوة .. قلت لعَلىّ:

– هذا هو الذهاب .. ترى هل يمكننا العبور قبل الإياب .. سمعنا زمجرة وسباب التركى الجلب .. صاح عَلْيٌّ :

– انظر .. هاهو التركى يَضرب الفتى الذي حاول العبور بعصاه الغليظة .. ضاحكًا .. حاول وأنت ونصيبك ..

– يعنى مازلنا فى إنتظار .. سامع تعليقات الناس حولنا..

– نعم ياسيدى – تنهد خافضًا صوت – قصدك تساؤلهم هل هو خليفة رسول الله أم خليفة الله ..

– طبعًا .. لماذا يخبئ وجهه .. نحن لا نعرفه .. ربما ليس هو ..

– يقولون حتى لا يُفَتن الناس به .. وأيضًا هو نوع من التواضع .. لكن – همس – يبدو أنها مسألة أمنية .. فهو مهدد دائمًا .. من أهله المقربين .. وأيضًا من الخارج ..

– لم تُجبني بعد .. ماذا ترى أنت فى تساؤلهم ..

– والله العلماء أنفسهم مختلفون .. تصوَّر .. الله يتولانا..

مَرّ الخليفة عائدًا .. كان يبدو مسرعًا .. تنفسنا الصعداء .. انفرط الجمع .. ودعت على .. أكملت طريقى إلى النهر قبل أن ينتصف النهار.

يالوجع القلب مع هذا البخيل أبى موسى .. فاحش الثراء، يتاجر فى أغلى السلع .. لا أعرف من زبائنه.. لم أسمع أبدًا عن أحد يشترى سروجًا أو عطورًا أو مفروشات من محلاته فى السوق الكبير .. ومؤخرًا أسس هذه المدرسة .. طريقة جديدة .. مُستَحدَثة .. تهتم باللغات والعلوم الحديثة والمُتَرجَمة .. وتكون مُستَقِلة خارج المساجد .. استرشد فى ذلك بأفكار الوزير النابه "نظام الملك " .. المصروفات باهظة .. يلتحق بها فقط أبناء التجار الكبار والسراة .. فهى الطريق للحصول على أعلى المناصب فى الخلافة . يتولى التعليم هنا من تأهل فى علوم الفرس واليونان .. بالإضافة إلى العلوم الإسلامية .. حسب خطة تربية "نظام الملك" .. لكن كيف لأبي موسى أن يميز بين التجارة في الجمادات والتعامل مع أهل العلم .. أعلم جيدًا أنه سيتغابى معنا نحن المتأخرين ليخصم من أجورنا .. فهو يقطن بجوار المدرسة فى الحى الراقى.

ما إن سمع بسبب تأخرنا .. حتى هَبَّ مُسرعًا خارجًا من حجرته فى نهاية الردهة - تطِلّ على الحديقة والبوابة - يتساءَل:

- .. وهل توجَّه إلى السوق ؟

لم أجد ما أقوله .. أسرع إلى النافذة .. صاح :

- أسرج الخيول يا ولد - هروَل خارجًا - هيا إلى القصر الكبير ..

توَجَّهتُ على مهل إلى القاعة.. إستقبلنى الخبثاء مهللين بشقاوتهم المعهودة معي .. حاولت إقناعهم بأنى جدّ مُرهَق اليوم .. والدليل هو حضورى متأخراً - على غير العادة - فى قيظ الشمس .. لذلك سنكتفى بقراءات هادئة.

يتزعمهم أحمد بن أبي موسى الطوسى .. فتى وسيم ، ذكي له حضوره .. استطاع التقرُّب إليّ بقراءاتِه المتنوعة .. برغم الحاجز النفسي بيني وبين والده .. اشترط عليّ أحمد :

- سنجلس هادئين بشرط أن تناقشنا فى أسباب عدم ترجمة أعمال اليونان فى السياسة إلى العربية ..

يا لهذا الفتى الماكر .. كنت أعلم كيف يمكنه ضخ حماسه الفتي إليّ .. حتى أخرج من الإهاق الجسمى والذهنى .. لكني فعلاً متعب .. فلأجرِّب الحيلة ..

- الأمر شورى يا أحمد .. حسب الجمهورية وجمهور المسلمين .. تُرى من منكم ياشباب مُستَعِد لهذا الحوار .. انظر .. أقلية .. لعلي ألقاك فى فترة الغداء . هيا لنستأنف القراءة فى الآداب.

كنت أترقب فترة راحة الغداء .. كى أستريح قليلا .. أعلم أنه سيلاحقنى .. تصيّدنى فى الحديقة.. تساءل وهو يلوك قضمة من الخبز المحشو بالجُبن:

– سمعت صياح أبى خارج السور، يسرج الجياد ويغادر المدرسة .. بعد وصولك في التو .. ترى لماذا ..

– لا أعرف .. هيا ما هو سؤالك ..

– دعنى أعرف أولاً .. هل مرَّ الموكب بالسوق ..

يالهذه العائلة .. قلت فى نفسى ..

– أنت تسألنى نفس سؤال أبيك ..

ضحك الفتى مصفقًا ..

– إذن .. هو ذهب الآن لمصالحته ..

حاولت ألا أهتم .. لكن الفتى الماكر مصر على الإيضاح والاسترسال ..

– شوف يا سيدى .. يقوم مولانا – الملول بطبعه – بصناعة بعض المشغولات .. مثل مقابض السيوف وسروج الخيول والعباءات.. يستخدم فيها الفائض عنه من الذهب والفضة والمجوهرات .. يُثمِّنُها بأسعار باهظة .. لا يَقدِر عليها إلا أناس هو يعرفهم ..

تستحسن أبى هذه المشغولات فى لقاء ذات مرة – من باب النفاق – اقترح عليه مولانا تسويقها .. أحس أبي بالورطة .. فكان يسدد هذه الأثمان والله يتولاه .. ومنذ حوالي الأسبوعين توقف .. لم يعد يعرض أو يسدد .. علقتُ ببساطة بينما أصلح من ملابسى وأجفف ما بقي من عَرَقْ :

– وما في هذا .. التجارة عرض وطلب .. ومولانا أعلم منا بالحقوق والواجبات .. نَظَرَ إليَّ الماكرِ مُستغربًا .. مُستَنكِرًا:

– أين ذكاؤك يا مُعلمي .. كيف كان لأبي أن يقيم هذه المدرسة التي تُعَلِم البدَعْ الدخيلة، وتُدِرَ علينا كل هذا الذهب .. برغم أنف كبار العلماء ..

مُذاكَــرة ..

أتتبع خطوط حفيدتى .. يادي الخيبة .. سترث فشلي في الرسم..

أجلس إليـهـا على الأرض، مـا أن أبسط الورق حـولنا، والأقـلام الملونـة.. تعـرف مـاذا سنفـعل .. تنبطـح أمـامي ، صـدرها على الورق .. تمـسك بالقلـم – بطريقـة صـحيـحة الآن – تبـدأ في تمـتمـات .. كـأغنيـة أو نشـيـد .. أفـهـم لغـتـهـا .. تنظر إليّ بـاسـمـة .. تتـأكـد من مـتـابعـتي لرسمـهـا.. تؤرجـح ساقيـهـا الدقيقـتين مع حركة يدها بالرسـم .. أكـيد لا تستوحـي مني ما ترسمـه .. حلزون بخط واحد متعرِّج .. يبدأ بدائرة واسـعة .. تضيق حتى تصبح نقطة، ترفع رأسـها إليَّ لأصَفِّق .. تشير فرحة .. أفهم أن هذه قطة !!

تدهشني ..

نغير لون القلم والورق .. حلزون آخر .. أيضًا هو قطة .. أما الخط الطويل بنتوآته، وينتهي بدائرة كبيرة غير مقفلة .. فهو فيل !!

يعني يتهددها نقد وسخرية نالا من جَدِّها طويلاً .. وعانى منهما..

لم تكن تجربتي مع الرسم تبشر بالخير .. ومطاردة أمي لي " درجاتك في الرسم ستقصف درجات المجموع .. "، متبوعة بأوصاف ونعوت ..

أستغرب اتهامات مدرسي الرسم ليْ :

"رأس بلا ذاكرة .. يخلو من التصور .."

رحت أبحث أيامها عن ماهي الذاكرة .. أسعفتني المكتبة .. اصطدمت بدارون وفرويد .. مراتب من القردة .. ظهور قشرة مخية عجيبة لأحدها .. حاولت من جديد .. أتأمل، أختزن الصور .. أبدأ خطوط رسمها .. تتبخر من رأسي .. تطيش الخطوط .. أزهق .. حاولت إقناع أمي بأن هناك موهبة .. تصيح فيْ بغضب :

" يعني كل أصحابك دول موهوبين .."..

تقف الست مارلين على ساق .. بينما تثني الأخرى للخلف .. فيبدو الكعب العالي مُسدداً كسهم إلى أعين المُحَملقين من يسار الصورة التي تملأ مدخل دار السينما . يحوط خصرها الدقيق ذراع توني كيرتس ... حتى لاتقع، بينما تميل هي للخلف .. كفة اليسرى تقبض على يمناها، وتنسدل خُصلها الشقراء للخلف.. ينزاح الثوب الأحمر الهفهاف من أعلى – بنفس لون شفتيهما – يعانى من ضغط جبلين .. راسخي القواعد .. ثلجيين .. لكن تشع قمتاهما حرارة .. تتطاير أطرافه السفلى، بعد دوران الرقصة .. تحاول بيسراها كبته .. لكن هيهات ..

فقد أطلت قمة الجورب الرقيق .. لم تتمكن من الانزلاق ، تقبض عليها المشابك السوداء .. يزداد سوادها حلكة .. ويتهمونني بأني لا أرى الصور .. تطاردني أيضًا في أحلامي .. يعني قشرة مخية نشطة .. تهاجمني الصور والأحلام ما أن أخلو بنفسي للمذاكرة .. يعني ذاكرتي نشطة في نومي ..

يتوعدني مسيو جورج .. سيسألني في اللغة الفرنسية صباح الغد .. تغلف قسوته قلب طيب .. لايضحك أبدًا .. في بذلته الكاملة دائمًا، نعرف أنه دائم السفر إلى باريس، ويعمل في شركة ترجمة الأفلام إلى العربية ..

ما يسببه لي من حرج، أشد قسوة بكثير من تقديره لدرجة أعمال السنة في الشهادة ..أفزع لمجرد تذكر تحول نظراته من الدفتر إليّ بصوته الأجش ينطق الاسم متبوعًا ب "لفت وا.."، يعني قف يا فلانٌ.. ليبدأ المحادثة .. ثواني مرعبة ..

باءت محاولاتي تلك الليلة، للمذاكرة والاستعداد، بالفشل .. يسيطر عليّ فيلمها الجديد، صورها في البوستر.. شاهدته مرة في أول أسبوع.. لكني أتوق للثانية .. ستحتاج إلى تحسن درجة اللغة الفرنسية .. كما وعدتني أمي .. لا أتحكم في شواش يملأ رأسي .. يخط قلمي الرصاص خطوطًا متناثرة .. تداعب صورها خيالي .. وهي تهرول في بهو الفندق الضخم .. تضيئه ثريات ضخمة باذخة .. تصطدم بالرواد في ثياب السهرة الأنيقة، والمجوهرات الثمينة .. والخدم في زي

مزركش .. كيف تتزن على هذا الكعب العالى، المريع .. شفتاها بنفس احمرار ثوبها .. باسمتان كفراشة لاهية فرحة .. طائرٌ الثوب خلفها .. "إكسكيوز ميْ "، تنطقها .. فيلا حقونها، في بهو الفندق .. وفي قاعة السينما .. لتلحق بستار حفلها في قاعة الفندق ".. تلهث .. تقوم المساعدة بضبط ملابسها، في كواليس المسرح .. تتباطأ اللقطات .. تحبس السينما أنفاسها، بعد أن كانت همسات مسموعة..

تذكرتُ صباح الغد .. انتبهت لأفتح الكتاب .. رسمها قلمي الرصاص .. على غلاف خلف الكتاب .. حتى كتفيها .. انتبهت مبكرًا قبل أن يُكمِل الرأس .. لكن ماذا يهم .. ورأسها في رأسي ..

ما هو بارز، أبرَزَته الظلال.. وماهو ملفوف نعومته واضحة.. الاستدارات مكتملة ، يغلفها الثوب الهفهاف .. صُعِقتُ .. من رسمها؟

أتأملها .. تزداد جمالاً.. مُنتشيًا بالانتصار .. كما لو كنت أزحت ثقلاً عن كاهلي .. إلي غلاف الكتاب.. أراها وقتما أريد .. أكمل رأسها من رأسي .. ذاكرة تجيد الاختزان .. فتحت الكتاب .. أجدتُ في اليوم التالي .. دعاني مسيو جورج – باسمًا – للجلوس أمامه بالصف الأمامي .. وبصوته الأجش:

– هنا مكانك في حصتي ..

طوال اليوم أترقب العودة إلى أمي .. فرحًا .. مُنتشيًا عُدتُ من السينما ..

سخيفة ابنة خالتي .. هي وأمها في زيارتنا .. تشاكسني دائمًا، ستُفسِد لقائي في السينما.. كتابي على السفرة في الردهة .. من أحضرهُ من حجرتي .. حرارة تسري في وَجْنَتى وأذنْي .. ترقبني بعينيها ساخرتين.. قبل أن أنتزعه، وضعت يدها عليه .. تقلبه في يدها .. تضحك مُشيرةً إلى الرسم .. ترفع صوتها:

– شفتي المذاكرة يا طنط .. دي المذاكرة .. وما بيعرفش يرسم .. يزداد غيظي منها .. ابتسامات باهِتة لاحت على شفتيْ أمي وخالتي، علقت أمي وبنظرة خاطفة:

– تلاقي واحد صاحبه بيعمل فيه مقلب .. هايمسحها..

سرعان ما استأنفتا حديثهما .. انتزعته من يدها بعنف محاولاً أن أبدو هادئًا :

– إيه اللي جاب كتابي هنا..

ترد مُمعِنة في مكايدتي .. بنظراتها، وإشارات من إبهامها:

– كنت أذاكر، وفيه أسئلة محيراني .. كنت ها أسألك فيها .. (تهز رأسها) باين عليك شاطر قوي .. هه .. هي دي رسم كده، ولا قاصِد حدّ..

فرحت أن لم تعرفها .. انتزعتُ الكتاب .. لزمتُ حجرتي وهو أمامي حتى ذهَبَتْ .. لم تنقطع تعليقات الزملاء إذا ما رأوا

الكتـاب .. رغم أني أخبئه ، لكن أحضرهُ في حصة مسيو جورج.. يتغزلون، ثم سؤال من الذي رسمها .. لم يتبادر لأيهم من المقصودة .. أحتفظ بسري..

ينهمك مسيو جورج في الكتابة على السبورة ، يملؤها بالجُمل .. لا يبالي بغبار الطباشير، ينتثر على بذلته الأنيقة ويديه .. ينتهي، فيضع قطعة الطباشير .. يصفق بيديه صفقتين، ينفض الطباشير، وعيناه مُسددتان إلينا .. يمد يده – بينما نكتب – ليتناول كتاباً من أقرب دُرج .. يُعِد لقراءة نص ..

في ذلك اليوم، ناوله زميلي كتابهُ .. نظر إليه .. أرجعه إليه ثانية .. وبصوته الأجش :

– لأ .. أنا سايب علامة في كتاب تاني هنا .. عليه مارلين مونرو..

الأساتوك ..

يصيبني الوجوم، كلما اصطدمت أذناي بهذه النغمات .. أحاسب نفسي ما بقي فيّ من نفس.. تركتها تلك الليلة هناك .. شقة مهجورة في ضاحية بعيدة .. ذهبنا إليها صباحًا، أنا وزميلي الواسطة .. لم يكن خفيًا احتياجي للمكان، لم يُخفِ صاحب البيت أنها كانت مهجورة، وستصادفنا متاعب .. مياه وكهرباء .. لكن ليس لدينا حل .. هو الخروج .. غروب ذلك اليوم يجب أن نكون قد خرجنا .. إلى أي مكان .. هنا .. في الشقة المهجورة ..

معنا حقيبتنا .. كبيرة .. لكنها كل ما لدينا .. نظرَتْ إليّ .. ذبلت عيناها، لكنهما ما ظللت أحلم بهما .. أمسك كفها بيدي الأخرى، بعد أن نزلنا من الترام القديم .. تتلفت حولها .. تستغرب المكان، طمأنتها أن الناس هنا أكثر دفئًا .. ما المشكلة ، لا زلنا في البداية .. لم يجمعنا إلا التفاؤل .. ينتابنا الضحك كلما عصفت بنا الحياة .. نزداد تلاصقًا ، لدينا مخزون يعيننا على السخرية من المتاعب .. اعتدنا هذا الشكل من الحياة .. أعرف أنها أحست باضطرابي .. إبتسمَتْ .. ستعود عيناها إلى البريق الذي أحبه.. قالت فجأة بينما نمر في الشارع المزدحم:

– فاكر لما كان لازم ندفع قسط الجمعية .. وكنا مفلسين ..

ضحكتْ .. ضغطتُ كفها في يدي .. قلت لها:

– وهو حد يصدق الحكاية دي .. شوفتِ الواد اللي كان سايق العجلة زي المجِنون ..

عادت ابتسامتها:

– كان ها يخبطني .. وأنت وقفت قدامي .. لف بالعجلة وكان هما يقع قدام أتوبيس .

– طار بالعجلة .. كان خايف .. وفرملة الأتوبيس، ياه .. أنا لقيت رجلي على اللفة دي ..

ضحكت :

– وكان فيها فلوس .. قسط الجمعية بالضبط .. شوف ربنا ..

لم تهتم بتهالك المنزل، والبضع الدرجات المكسورة .. في الظلام فتحتُ باب الشقة .. غداً ستصل حجرة نوم معدنية، حجزتها بعد إيجار الشقة .. قلت لها :

– سنقضي الليلة معًا .. نتكلم ونسمع الراديو .. بطارياته جديدة، مش كده .. نظرَتْ إليَّ .. عادت نظرتها التى تمنحني القوة .. ربتت على يدي :

- أيوه .. ولا يهمك .. أنا ها أفرش البطانية هنا، وأستناك لغاية ما تيجي .

- وأنا مش ها أتأخر .. الليلة بالذات لازم أكون معاكِ من بدري .. تركتها مُغادرًا إلى الأستوديو، .. يعزُّ عليَّ أن أتركها وحدها ، تلك الليلة بالذات، شعور الغربة في عينيها يقتلني .. لكننا سنحتاج نقودًا الليلة .. هما ساعتان وسأعود سأحضر معي العشاء الذى تحبه..

الترتيبات مُعَدّة، يتقاطر أفراد الكورس .. ينتحون جانبًا في صالة الانتظار .. كثر عددهم ، تحول الهمس إلى ضجيج .. لم نكن نعلم أن هذا النجم الجديدَ .. الساطع في سماء الغناء ، يحتاج إلى كل هؤلاء، ليؤكدوا شاعرية المعاني في رائعته:

إيـــه الأســـاتـــوك ده　　　　إللي مـاشي يتُك ده

والتي إلى الآن لا أدرك لها معنى ..

اقترب مني أحدهم، في غرفة التسجيل .. أشرت له ليظل على الباب، رفع يده .. استغربت لتحيته .. هل نحن في قسم الشرطة .. أكدَ إحساسي بسؤاله :

- هو ممكن ندخن يا باشا .. أصل فيه علامة بره .. يعني ممنوع .. وطبيعي الأستاذ بيتأخر (ينظر باتجاه زملائه، يغمز بابتسامة سخيفة) .. ده حتى ساعات ينسى..

سـمـعت ضـحكاتهم بالخـارج .. لا أدري هل هززت رأسي بالموافـقـة أم لا .. يادي المصيبة .. ها يتـأخـر .. يعني هي ها تنتظرني لأمتى .. سـادنى حزن ووجوم .. لم آبه لهم وهم يلفون السـجـائر .. بين الآلات الموسـيقـية .. خلف البيـانو .. خـارت عزيمتي .. لا أقوي على الصياح فيهم .. تمضي ساعات الليل بطيئـة .. لا يتـوقـفـون عن ضـحكهم الماجن .. أرسلوا البنات لإحضـار طعام .. تذكرت، لا طعام لديها هناك .. ازداد فـزعي وضيقي ..

هاجما الانفتـاح .. نتخبط .. لم تعد مدّخراتنا تفي باحتياجات زواجنا .. ولن تفيِ بعد عشرة أو عشرين عامًا .. تراجع فجأة كل التجار في الأسعار والاتفاقات.. بحكم العمل في الموسيقى، لم يكن خيالنا يتصور أستوديو خارج الإذاعة .. لكن من ضمن المستوردات الحرة .. أستوديوهات .. وهذا الأستاذ الذي ننتظره لم يكن ليظهر لو كانت أغنيته ستمر بالإذاعة .. لكنه ظهر خلف الراقصة الشهيرة، بعد انتعاشة البترول .. ذاعت الأغنية .. تملأ الدنيا ومحلات العصير .. يتخاطفها الانفتاحيون، يتباهون بها في حفلاتهم ومجالسهم .. هو النجم الآن.. وعلينا الانتظار .. نتبادل النظرات، أنا وعليٌ .. رفقة عُمْر .. يسخر الآن من فكرة الزواج .. أصبحت أخشى الخوض فيها معه .. أحس بانفتاحيته الوليدة .. دفع المبلغ الذي ورثه في استيراد الأستوديو .. اقتطع

له جزءًا في جراج بيتهم .. والباقي تقسيط .. هجر موسيقى راقية كنا نستمتع بها، إلى عالم التسجيلات .. والفلوس .

وجدتني معه .. بهيئتي فقط .. وتاريخنا .. لم تعد تتلاقي رؤوسنا .. أشعل سيجارة .. سألني بهدوء:

– أنت قلقان ليه ..

لم أعد أخبره .. كان شغوفًا بقصتنا .. أصبحنا مثار سخريته .. قلت له:

– مش معقول البيه الفنان يتأخر ثلاث أربع ساعات كده .. وكل الناس دول مبهدلين الدنيا، واحنا قاعدين ..

بدأ فاصل سخريته .. سخرية انفتاحية .. يعلم أنه يغيظني :

– زعلان ليه .. براحته .. مش ها يدفع زي ما احنا عايزين .. تعال نجرب نسمع اللحن بعد التوزيع، على بال ما حضرته يشرّف ..

أدرت الجهاز في غرفة التسجيل .. خفضت الصوت حتى لا أثير هؤلاء الهمج بالخارج .. ياربي .. هذه التكنولوجيا الراقية .. ستحمل هذه الأغنية .. وهؤلاء العازفون المشهورون .. حضروا للاشتراك في تسجيلها .. كنت أراهم يتغامزون.. لكن منتهى السعادة، مبالغ لا يحلمون بها في أقل من ساعة .. وتفنن الأستاذ الموزِّع في إكسابها أبعادًا وطبقات وصدى .. أسجل

إبداعاته، أعيد معه وأزيد .. وأحاول فهم ما تريده الأغنية .. أم هى مجرد إيماءات .. يغنيها مجتمع ، تخلّى عن الكثير .. لم أكن أسمع .. كلي منصرف إلى الشقة المهجورة.. هناك .. حيث تنتظرني .. أفكر في ترك المكان هارباً إليها .. أضمها لأخفف من هلعها، لا أحب أبداً أن تنتظرني .. أسأل نفسي : " بعد هذا التوزيع الموسيقى الهائل .. أى حد ممكن يقول الكلام الغريب ده .. إيه الإمكانيات الصوتية التى تنتظرها الجماهير .. الانفتاحية .." ضجة وجلبة وبوق سيارة .. تعلن وصول الأستاذ في سيارته السوداء الضخمة .. تتوسط سيارات مساعديه والبودي جاردز .. الكوفية الثقيلة حول عنقه، تدفئ الحنجرة الذهبية .. هز رأسه بتحية .. أفسحوا له الطريق بين رفقته القديمة .. تركوا سجائرهم .. يقتربون منه .. يدس في أيديهم قطع صغيرة لم أتبينها .. يتباهون بها فرحين .. يدعون له .. جلس بالقرب منهم في صالة الانتظار .. أشرت إلىَ علىْ:

– هو لسه ها يقعد ..

– أنت متوتر (ينظر إليّ مليًا) مالك .. عمومًا ها أقول له ..

قام متجهًا إليه .. حديثهما هامس، يضحكان .. قام النجم متكاسلاً .. دخل قاعة التسجيل .. يواجهني أمام ميكروفونه عبر زجاج القاعة .. عليٌ يقف إلى جواري أمام لوحة التسجيل ..

طلب أن يسمع آخر ما وصل إليه التسجيل .. أدرته له، أقول في نفسي "هو ماله بالتوزيع .. هايفهم إيه.. " قلت له في الميكروفون بعد أن ضغطتُ "ستوب" .. وعيني في عينه:

- جميل .. أنا جاهز ..

أشرتُ له بإبهامي .. هزّ رأسه .. أعدتُ الشريط .. ليدخل الكلام.. أشرت له بيدي.. يحفظ الأغنية .. يحرك جسمه كله بينما يؤدي .. يضيف كلمات .. يحييه الجمع خلفه بالإشارات مع التصفيق داخل الأغنية.. يصف الراقصة بتموجات كفيه، يصفق محركًا حاجبيه مع هز وسطه .. إلى أن انتهت .. رفعت يدي إليه مُهنئًا .. أقفلت الأغنية .. بعث إليّ بأحد أعوانه.. يريد الإعادة .. نظرتُ إليه عبر الزجاج .. لا أدري ماذا فعلت .. ارتفع صوتي .. صياح ملأ المكان، عيون كثيرة تتطلع إليّ .. خلع السماعة عن رأسه ، فصوتي فيها يصُمّه :

- هى كده خلاص .. عايز فيها إيه تاني .. عايز إيه تاني ، يا فنان..

صَفقتُ له .. نظر إليّ عبر زجاج الغرفة، حرك لي يده.. إستغربت .. نفس تحية قسم البوليس .. جاءني صوته في سماعتي :

- تمام ياباشا ..

تحرك خارجًا وسط الجمع من مريديه ..

أعطاني عليّ نقودي مبتسمًا :

- خوّفت الراجل .. مالك ..

لم أرد .. خرجت مُسرعًا .. إليها ..

أحمل لفة السندوتشات .. ترتكن إلى جدار في ركن الحجرة .. جالسة على البطانية .. انفجرَت باكية :

- ما فيش لمبات إلاّ هنا بس .. لا في الحمام ولا المطبخ، وفيه أصوات غريبة .. ها أموت من الخوف .. وانت اتأخرت قوي ..

بكاء حار .. تجهش، احتضنتها .. تهدأ في صدري .. حاولتُ ألا ترى دموعي .. ألعن نفسي .. والفلوس .. لم أتركها حتى هدأتْ .. حديثنا الوحيد ليلتها عن القسوة .. من أين .. من اخترعها ..

مرّ موكبنا بالحي القديم، ونحن نودعها باكين .. يمر به الطريق إلى المقابر .. في صورة باهتة في شفيف دموع تملأ عينيّ .. ألمحنا هناك .. سائرَين معًا في الشارع المزدحم .. أتأبطها ضاحكة .. ممسكًا بيد طفلنا الأول، متمهلين في صباح شتاء مُشمِس.. نمر على بقالة الحاج أحمد .. غمرت الدموع عينيّ ..

انهمَرَت .. أولادنا ، والكل باكٍ حولي .. ترى هل لو ذهبتُ إلى الشقة المهجورة الآن .. سأجدها في الركن .. تنتظرني ..

مادت بيْ الأرض .. أسندتُ رأسي إلى نافذة السيارة..

تلهو حفيدتي معي .. مجتمعون كلنا .. فالليلة عيد ميلادها .. تمسك بأصبعي ، سرت خلفها خلال صخب الصغار والكبار .. أحملها، فرحة .. أفهم لغاها.. تشير بأصبعها الصغيرة "ده" .. الدمية هدية على شكل كلب .. أمسكتها، ضغطتْ على الزر .. غنى الكلب راقصاً :

إيــــه الأســـــاتـــوك ده   إللي مــاشي يـتُك ده

قراءة فى هذا الكتاب

كمقامات عصرية.. تأخذنا هذه المجموعة القصصية إلى مناطق متنوعة، عبر أجواء شعبية وشخصيات مثقفة وعلاقات إنسانية تتوثق عراها لتتفكك وتتمزق مع تحولات قيمية متسارعة فى واقعنا المعاصر، وأسميها «مقامات» لأننا نشعر بأن وراء أغلب القصص بطلا واحد.. يرصد ويتأمل، متنقلاً من مكان لآخر، ومن عالم لعالم، ومن عمر لعمر، عبر طبقات الروح الشعبية العميقة، متعاطفًا بحنوٍّ بالغ مع شخصيات تتطلع للخلاص من الشقاء بكافة أسبابه وتجلياته، لكنه لا يتمادى كثيراً إلى آفاق الشقاء الوجوى للإنسان والتأملات الفلسفية لمصيره، وإن حاولت بعض قصصه الوقوف أمام القدر والمكتوب أو أمام تصاريف القدر لحياة الإنسان، ثم تكتفى بهذا الوقوف المندهش فى تسليم أمام جدار لا يحق له تجاوزه!

وإلى ذلك – فثمة فى المجموعة حنين دافق إلى ذكريات الماضى الجميل فى حيوات شخصياته، وإلى أطياف من البراءة والحب الضائع والفطرة الساذجة فى مراحل الطفولة والصبا، حيث يتفتح القلب لأول

مرة على الحب أو على الحقائق الكبرى مثل الموت، والفقدان العبثى للأحبَّة، ومثل ذبول الحب لتحل محله الجفوة والفتور فى القلوب التى تدهشها عجلة الحياة، وتدور بها دوامة التحولات، التى تنفى أبدية المشاعر وثبات المعانى المطلقة، طالما كان الإنسان ابن ظروفه وواقعه، لكن المؤلف لا يكف عن جعلنا نأسى ونتعاطف حتى مع لحظات الضعف الإنسانى فى مواقف أبطاله، فلا يدينهم ولا يتعامل مع أخطائهم بقناعة أخلاقية أو بحيادية عقلانية باردة، بل يأخذنا بحنوٍ إلى حالة من التسامح مع تلك الأخطاء وإلى التصالح مع الحياة، مُلمِّحا إلى أن الخير والشر طبيعتان متداخلتان فى النفس ولا تحملان صفة الثبات، والمؤلف يتعامل معهما بنعومة وإيماء هادئ بدون أحكام مطلقة.

غير أن هذه المعانى النبيلة جميعًا لا تكفى لبناء قصص حقيقية، إنما الفن وحده هو القادر على ذلك، وقد امتلك منه أسامة ريان الكثير، إذ تبتعد غاية البعد عن المباشرة وعن إرسال الرسائل المجانية، منطلقا من موقف إنسانى أو من لحظة متوترة فارقة فى الحياة الشخصية، تاركا سبعة أثمان من جبل الجليد العائم من حياته الشخصية وظروفها ودوافعها وملامحها تحت الماء، ليتيح الفرصة للخيال ولقدرة الفن على تحقيق التفاعل مع ذاكرة القارئ ومشاعره، كى يكمل ما أحجم قلم الكاتب عن ذكره، إنه التكثيف الفنى الشديد الذى يتطلبه بناء القصة القصيرة، مقللا من السرد المستعرض قدر الإمكان، ومُركزًا على الغوص رأسيًا فى أعماق الشخصيات، مستعينًا بشذرات خاطفة -

مُرْبِكة أحيانًا – من ماضى الأحداث وتاريخ الأبطال، وهذا الإرباك هو الذى يدفع القارئ غالبًا لإعادة قراءة مقاطع وصفحات قبل أن ينتهى من القصة، بسبب التباس متعمد يحدثه المؤلف فى النص بين الأشخاص والضمائر، مبدلا بين ضمائر «الغائب» و «المتكلم» و «المخاطب» .. والقصص جميعًا – على صغر مساحاتها (صفحتان فى أغلب القصص) – تلتزم بالجملة الفعلية أو الاسمية القصيرة جدا، وهى تعرض الخبر أو الحركة أو الوصف، بلمسات خاطفة أقرب إلى الأسلوب التنقيطى أو الانطباعى فى اللوحات التشكيلية.

ثمة ما يذكرنا – فى بعض قصصه – بالأديب أنطون تشكيوف، بتلك المواقف الإنسانية للوحدة القاسية فى خريف العمر، وللحب الذى يتسرب هاربًا من بين الأصابع مع تسرب الأيام والسنين، ليترك فى النفس ذلك النوع من الألم الغامض المغلف بالحنين، ومن الاكتشاف المحض بعد فوات العمر بأننا لم نعش الحياة التى تمنيناها، مُبرِزًا تلك المفارقة الساخرة: بين الأمانى والواقع، بين ضرورات العيش وصبوات القلب، وكيف لنا أن ننسى قصصًا مثل : صدى المكان، مقدر ومكتوب، أميرتى ، هولاهوب، الأساتوك، جامبو، مسافرون؟!

إنها حقًا مجموعة قصصية جميلة، تذكرنا بتجليات بتنا نفتقدها من ذلك الفن الجميل!

عز الدين نجيب

الفهرس

التعريف بالكاتب

أسامة ربان

ولد فى ١٩٥٣/٤/١٢ تخرج فى كلية العلوم جامعة عين شمس.

سبق له النشر في صحف / الوفد والهلال والأهالي.

لجنة الكتاب الأول

حسين حمودة [مقرراً]
أمينة زيدان
خيري دومة
سيد الوكيل
شيرين أبو النجا
عز الدين نجيب
مجدي جرجس
محمد كشيك
مسعود شومان
مصطفى الضبع
مصطفى عبد الله
مهدي بندق

صدر من الكتاب الأول

العنوان	النوع	المؤلف
١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - ليكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيلة
١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر

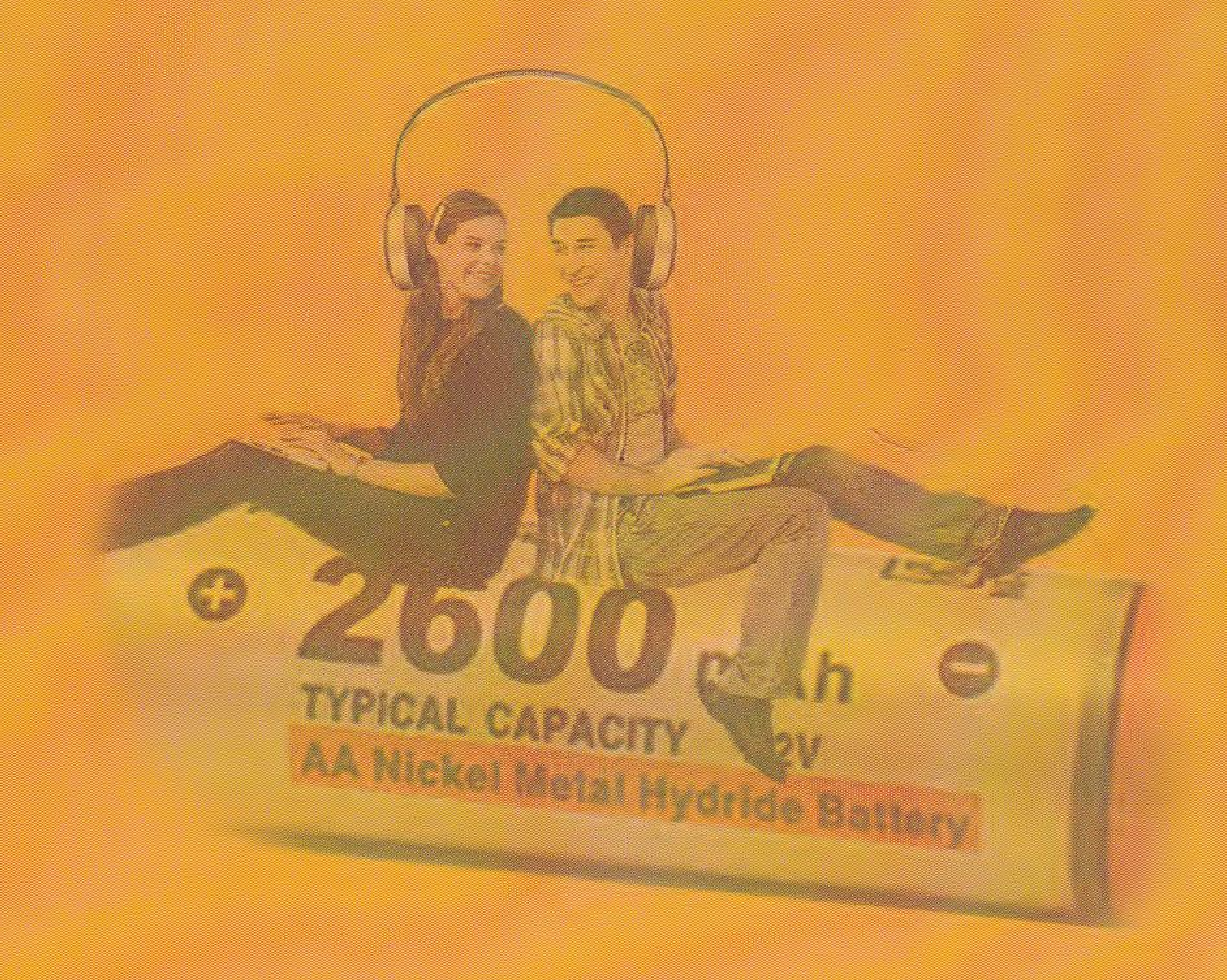
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - بائع الأقنعة	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف
٣١ - كرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جمر الأصابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمرة وحيدة	قصص	حسن صبرى
٣٥ - أمسيات عائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - ملامح وأحوال	نقد	ناصر عراق
٣٧ - كتابة الصورة	نقد	محمد مختار
٣٨ - نتاج الخوف	مسرحية	ناصر العزبى

العنوان	النوع	المؤلف
٣٩- عناصر الإضحاك فى مسرح بديع خيرى	نقد	محمد زعيمة
٤٠- أولى	حكايات	محمد ناصر
٤١- وهج الكتابة	نقد	حسان بورقية
٤٢- البنت مصرية	قصص	مصطفى الشافعى
٤٣- قبل اكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤- تجرى بسرعة فائقة	شعر	سحر سامى
٤٥ - تفكيك الرواية	نقد	فتحى أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس فى المسرح الحديث	نقد	مروة مهدى
٤٨ - فى السنة أيام زيادة	شعر	جمال فتحى
٤٩ - ماتحاولش	مسرحية	مصطفى سعد
٥٠ - الفن الفطرى فى مصر	نقد	ضحى أحمد
٥١ - كائن خرافى غايته الثرثرة	شعر	نجاة على
٥٢ - لون هارب من قوس قزح	رواية	منى الشيمى
٥٣ - الشرك	قصص	ليلى الرملى
٥٤ - رغبات	قصص	فارس سعد
٥٥ - لن تدرك سرك	رواية	أحمد عادل القضابى
٥٦ - حاجات تانية	شعر	محمد عبد الحميد دغيدى
٥٧ - خازنة الماء	شعر	فتحى عبد السميع
٥٨ - قص ولصق	قصص	مجدى عبد الهادى
٥٩ - عيون سمارة	أوبريت	فرغلى مهران
٦٠ - السير نحو نقطة مفترضة	نقد	محمد أحمد العشيرى

٦١ - وخــز كـــان	قصص	أحمد كمال زكى
٦٢ - أثر الأعمال الأدبية فى الملتقى	نقد	فاطمة فوزى
٦٣ - الروائيون المصريون الجدد	نقد	أحمد الشريف
٦٤ - مذكرات دوناكيشوته	قصص	أمنية طلعت
٦٥ - أنساق اللغة المسرحية	نقد	حاتم حافظ
٦٦ - تغيرات فنية	قصص	نائل الطوخى
٦٧ - محاورات الضوء والظل	نقد	عبد الغني السيد
٦٨ - النقد المعاصر للفكر السياسي	نقد	أشرف منصور
٦٩ - لونه أزرق بطريقة محزنة	قصص	محمد صلاح العزب
٧٠ - أغنية للمساء الحزين	قصص	أيمن الخراط
٧١ - موكب الجنون	قصص	صبرى عبد الحفيظ
٧٢ - حروب وهزائم	شعر	منتصر عبد الموجود
٧٣ - فى انتظار شيء ما	قصص	أسامة قرمان
٧٤ - هيمنة الغائب	نقد	علاء الجابرى
٧٥ - حماقة	شعر	يحيى زكريا
٧٦ - بدايات قلقة	قصص	جمال الجزيرى
٧٧ - غواية النص وقراءة اللعب	نقد	سيد عبد الله
٧٨ - قصايد للبنات	شعر	صابر محمد فرج
٧٩ - مجرد شكل	قصص	مجدى عبد المجيد خاطر
٨٠ - حفرة للعب	شعر	مها شهاب الدين
٨١ - بورتريه لجسد محترق	رواية	أحمد عامر
٨٢ - العشق مصباح الجسد	شعر	مدحت علام

٨٣ - شجرة جافة للصلب	قصص	هانى عبد المريد
٨٤ - أغنية عن بندقية	قصص	صلاح عساف
٨٥ - ولد خيبان	شعر	سالم الشهبانى
٨٦ - العولمة وقضايا الهوية والثقافية	دراسة	ماهر الضبع
٨٧ - تماثيل الملح	رواية	محمد كمال حسن
٨٨ - الخيال	شعر	عبد الرحمن آدم
٨٩ - عذراً .. لن أشارك فى الاحتفال	شعر	كمال عبد الرحيم
٩٠ - يوم تكلم الظل	قصص	منى محيى الدين
٩١ - الخيال المسافر	قصص	منى محيى الدين
٩٢ - نضارة نظر	شعر	محمود رضوان
٩٣ - الطير فى الشعر المصرى المعاصر	دراسة	عماد حسيب محمد
٩٤ - ثم	رواية	حسين منصور
٩٥ - فركة كعب	رواية	دعاء فتوح
٩٦ - العربات المعطلة	شعر	هانى صلاح العكل
٩٧ - يوم يكون الراعى	شعر	كمال على مهدى
٩٨ - نوبة عطش	شعر	عبد اللطيف مبارك
٩٩ - تحت خط الضحك	شعر	مصطفى الحسينى
١٠٠- باينى كبرت	شعر	أحمد عبيد
١٠١- رابعهم كلبهم	قصص	هيثم خيرى
١٠٢- أسرار البسطامى	قصص	عبد العزيز السماحى
١٠٣- للبحر كلام متأجل	شعر	عبد اللطيف أحمد
١٠٤- تعود أن تموت	شعر	عادل محمد أحمد

١٠٥- لسبب ما	قصص	آمال الشاذلى
١٠٦ - قلب أراجوز	شعر	إبراهيم الرفاعى
١٠٧ - منزل الروح	شعر	إيهاب البشبيشى
١٠٨ - لعلكم تهتدون	شعر	محمود عبد الرازق
١٠٩ - جايز ترتاح	شعر	السعيد المصرى
١١٠ - الرائى وقداس الحجر	شعر	صالح أحمد
١١١ - البعثة	قصص	أحمد حمدان
١١٢ - صباح يأتى لك	شعر	أسماء عواد
١١٣ - بيكار معزوفة الكلمة والفرشاه	دراسة	إيناس الهندى
١١٤ - حياة من طرف واحد	شعر	محمد عبد الحى
١١٥ - ذاكرة مشقوبة	قصص	حسان دهشان
١١٦ - المرأة فى المخيال الجمعى	دراسة	أحمد عبد الحميد النجار
١١٧ - شتاء عجوز	شعر	سيد عبد الرحيم
١١٨ - ركن فاضى	شعر	مجدى عطية
١١٩ - الألفا	شعر	بدر الدين محمود
١٢٠ - حضن التابوت	قصص	ماهر الدويرى
١٢١- حرير التراب	قصص	عزة كامل


2600 mAh
TYPICAL CAPACITY
AA Nickel Metal Hydride Battery




المجلس
الأعلى
للثقافة